مُقَدِّمَة

للفروسة منزلة عند العرب، وهي معين عذب للشعراء يستقون منه، وقد تجلّت معاني الفروسة كأظهر ما يكون وأكمله في شعر عنترة وأبي فراس، بل لا نكاد نغرب إذا قلنا: إن شعرهما كله قائم على الفروسة، ويعدّ تمثيلاً صادقاً للفروسة بكلّ ضروبها وخلالها، وإذا كانت الفروسة قوة البأس، وفصاحة القول، فقد توفر لهما ذلك؛ فكلاهما فارس، شاعر، لهما في الحروب مكان الصدارة، وكم عبرا عن فروستهما تعبيرًا صادقاً، وكلاهما محب عاشق، سجّل مواقفه في الحروب، وحسن بلائه في ساح الهيجاء، وإخلاصه في حبّ حبيبته(١).

وقد حدا بنا هذا إلى المقاربة بين الفروسة عند الشاعرين من وجهة النظر الأنثروبولوجية(٢)؛ حيث معرفة الظلال التي ألقاها تطور الأعراق والعادات والمعتقدات والعلاقات الاجتماعية والتوزيع الجغرافيّ على شعر الفروسة عندهما، وكذا أثر اختلاف السُّلالة البشريّة وخصائصها ومميِّزاتها لديهما؛ إذ نشأ كل من الشاعرين في بيئة مختلفة تماما عن بيئة الآخر؛

---

(١) اشتهر عنترة بحبه ابنة عمه عبلة، وأما أبو فراس فحبيبته نجلاء الخالدية، أخت أبي بكر وأبي عثمان الخالديين، كان يحبها ويهواها، وكانت أديبة شاعرة كأخويها، ويذكر أنه تزوجها، ونظم فيها الكثير من غزلياته الفائقة.

(٢) الأنثروبولوجية: تعرف كذلك بالإناسة، أو "علم الإنسان"؛ وهو علم يبحث في أصل الجنس البشريّ وتاريخ تطوره وأعراقه وعاداته ومعتقداته وعلاقاته وتوزيعه الجغرافيّ، وفي السُّلالات البشريّة وخصائصها ومميِّزاتها". ينظر: معجم اللغة العربية المعاصرة، ١٢٨/١، د/ أحمد مختار، عالم الكتب، ط١، ٢٠٠٨م.

فعصر عنترة هو العصر الجاهلي، بكل ما فيه من شرود وخروج على مبدأ المساواة بين البشر على اختلاف ألوانهم وأجناسهم، وموطنه أرض الشربة والعلم السعدي ببادية نجد وبلاد الحجاز بلاد الشظف والخشونة وعدم الاستقرار سعيا وراء العشب والكلأ ومنابع الماء، قضيته الدفاع عن قومه ليثبت لهم أنه جدير بأن ينسب إليهم وأن ينال ابنة عمه وعن نفسه ضد المتربصين الذين لا يحسن في أعينهم أن يروا رفعته بينهم تزيد وتنمو وعلوّ قامته في ازدياد يوما بعد يوم، وأعداؤه هم من يعادون قومه من عرب البوادي ومن ينقمون عليه السموّ إلى منزلة السادات ويرون ذلك منه تطاولاً وتجاوزاً للحدود.

وأما عصر أبي فراس (٣٢٠-٣٥٧هـ) فهو العصر العباسي الثاني بكل آلامه وآماله، وهمومه وطموحاته، وما فيه من عدم استقرار سياسي، الشام موطنه، والإسلام دينه، والجهاد ديدنه، والروم أعداؤه، والملك والسيادة له، والشعر والفروسة سلاحه.

اشترك الشاعران في الفروسة قولا وفعلا، فهما فارسان محاربان لم يصفا الحرب من بعيد، وإنما هما من أبطالها الذين اصطلوا بنارها، وخاضوا غمارها، فكان لهذا الاتصال الوثيق أثره الجلي في شعرهما، فهو عن تجربة وممارسة، لا عن اجتهاد وتأثر.

ولهذا سأعمل بمشيئة الله تعالى على دراستهما، ليس لإظهار البراعة والغلبة لأحدهما، فليس هذا من وكدي، بل تلك مقاربة لإثبات مدى الاتصال والتأّثر والتأثير بينهما، وإنما آثرت المقاربة – في ضوء المنهج الأنثروبولوجي- لأنّ النصوص الشعريّة التي نقرؤها لـ "عنترة" قديمة؛ وأنها بحكم جاهليتها تتعامل مع المعتقدات، والأساطير، والحيوانات، والوشم، والمحلاّت، وكلّ ما له صلة بالحياة البدائيّة، وفي حين أن نصوص "أبي فراس" شمّت شيئا من الحضارة؛

فهو عباسيّ، لكنه عربيّ أصيل يعيش في دولة الحمدانيين التي لم تختلط بعجمة الأعاجم، وحاولت الحفاظ قدر استطاعتها على هُويتها العربية التي كان يصعب الحفاظ عليها آنذاك، وربما يعكس هذا قول أبي الطيب[(١)]: (الوافر)

ولكـــنَّ الفـــتى العـــربيَّ فيهـــا ** غريبُ الوجـــهِ واليـــدِ واللســـان

فما زال إذاً أبو فراس مشدودا – بحكم نشأته– لهذه البداوة التي تمثلت في الحياة العربية الأصيلة في العصرين الجاهلي والإسلامي، وما زالت نصوصه تحتفظ بهذا الطابع الأصيل لتلك النصوص العربية في عصر بداوتها وعروبتها الكاملة، مما أغراني بدراستها أنثروبولوجيا.

والله من وراء القصد وهو يهدي السبيل

(١) ديوان أبي الطيب المتنبي، ٢٥١/٤، شرح أبي البقاء العكبري، ضبط وتصحيح: مصطفى السقا وآخرون، مطبعة البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٣٦م. ومعلوم أن المتنبي قاله في شعب بوان (أرض بفارس بين أرجان والنوبندجان)، كان أحد متنزهات الدنيا. وأعني بالاستشهاد التمثل إذ أصبح العربيّ غريبا في بلاده التي استولى على حكمها الأعاجم من فرس وترك وغيرهم، ولم يصبح للخلافة من شئون الحكم سوى الاسم، وانتزع العرب من مكانتهم.

أولاً: الفروسَةُ(*) والشعرُ "قراءة تمهيدية"

- ١ -

الفروسة(١) تعني الشجاعة والإقدام، يتمنى كلّ عربي أن يتصف بها، وحبذا إذا كانت مقرونة بالقوة، وهي ميدان للتنافس، يتنافس فيها الفرسان على البقاء، وإثبات الذات، وإظهار قوتهم وبراعتهم، وهي ثابتة في الشعر، فلا يكاد يخلو ديوان شاعر قديم منها، فإما أن يكون عليها مدار شعره، أو يتحدث عنها كصفة لاقت صدى في نفسه، فأراد الإشادة بها في شعره، ولا غرابة في ذلك، فالفروسة صفة تمثل الشخصية العربية المتكاملة التي استطاع الشعر أن يخلد ذكرها.

ومما دعا إلى كثرة الشجعان بين العرب طبيعة البيئة في جزيرة العرب آنذاك، وما تزجيه لقاطنيها من أخطار شتى، بين مغير وفاتك وحيوان مفتر، ويضاف إلى ذلك امتداح الرأي العام للشجاع القوي الذي يلبي النداء إذا دعي للنجدة، وللرأي العام سلطان قوي يتأثر به الفرد والجماعة، وكان العرب

(*) اخترت لفظ "الفروسة" دون لفظ "الفروسية" مع شهرة الأخير لتقدّم الأول عليه في المعاجم العربية، ويذكر أن "الفروسية" من المصادر الصناعية القليلة التي استعملها العرب.

(١) الفَرَاسَةُ، بالفَتْحِ: الحِذْقُ برُكُوبِ الخَيْلِ وأَمْرِهَا ورَكْضها والثَّبَات عَلَيْهَا... والفَرَاسَةَ كالفُرُوسَةِ والفُرُوسِيَّةِ، بضمِّهما، وَقَالَ الأَصْمَعِيُّ: يُقَال: فارِسٌ بَيِّنُ الفُرُوسَةِ والفَرَاسَةِ والفُرُوسِيَّةِ وإِذا كانَ فارِساً بعَيْنِه ونَظَرِه فهو بَيِّنُ الفِراسَةِ ، بالكَسْر. وقَدْ فَرُسَ، ككَرُمَ، فُرُوسَةً وفَرَاسَةً، وَقيل: إِن الفَرَاسَةَ والفُرُوسَةَ لَا فِعْلَ لَهُ. وقالَ ابنُ القَطّاع: وفَرَسَ الخَيْلَ فُرُوسَةً وفُرُوسِيَّةً: أَحْكَمَ رُكُوبَهَا، وفَرُسَ أَيْضاً كذلِك. تاج العروس من جواهر القاموس، مادة: ف ر س، الزبيدي، طبعة الكويت، ط٢، ١٣٨٥هـ - ١٩٦٥م.

يمتدحون الشجاع، ويهزئون بالجبان الرعديد، الذي يخيم عن الذود عن المحارم، وينكص على عقبيه في حومة الوغى(١).

والشعر ميدان رحب للشعراء الفرسان يتوجون من خلاله بطولاتهم على مرّ الزمان، ويذكرون مآثرهم، ويصفون ثباتهم في معاركهم، وملاقاتهم الأبطال الصناديد؛ وللشعر الفروسي مكانة عالية عند العرب، إذ أن له أثره فيهم فهو كـ: "السلاح المؤثر الذائد عن القبيلة الذي لا تقلّ فاعليته عن أدوات الحرب وفرسانها"(٢).

-٢-

وقد ارتبطت الفروسة بالشعر ارتباطًا وثيقًا، لذلك تعد عاملاً وغرضا رئيسا في الشعر، فالنفس البشرية تميل وترتاح لشعر البطولة والحرب، ترى فيه نصرًا وعزا ومجدًا، وعلاقتها بالشعر قوية بحيث يصعب الفصل بينهما، فترابطهما ممتد عبر الجذور التاريخية، والعصور الأدبية؛ إذ اتخذ الفرسان من الشعر فنّاً لهم... وليس بمستغرب أن يجمع الفارس بين الفروسة والشعر، فاجتماعهما دليل على اكتمال القوة الحركية والفكرية لديه (٣). ولعل هذا هو الذي أدى إلى ظهور لقب "صاحب المجدين السيف والقلم"، وهو وإن كان حديثاً لُقّب به المتنبي في العصر العباسي والبارودي في العصر الحديث فصداه في الشعر منذ القدم؛

---

(١) ينظر: الفتوة عند العرب أو أحاديث الفروسية والمثل العليا، ٤٠، عمر الدسوقي، مكتبة نهضة مصر.

(٢) مفهوم الصدق في النقد القديم، ١٥، د/ حمود الصميلي، إصدار نادي جازان الأدبي، ط١، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.

(٣) الفروسية في الشعر بين أبي فراس الحمداني وأسامة بن منقذ دراسة موازنة، ٢، رسالة ماجستير، منى اللهيبي، جامعة أم القرى، السعودية، ١٤٢٩هـ-٢٠٠٨م.

فعنترة أيضا كان جديرا بهذا اللقب، وإن كان المراد بالقلم هنا البيان ليس مجرد الكتابة، فالفروسة إذاً فروستان "فروسية العلم والبيان، وفروسية الرمي والطِّعان"(١)، و"بعد أن صارت – الفروسة– مذهباً معروفاً وأدباً محذوّاً، ومنهجاً في الحياة ذا طقوسٍ ورسوم، برز فيها رجال لم يكونوا شعراء خلّصاً، وإنما تعاطى من تعاطى منهم الشعر؛ ليتم به آلة الفروسية ومظهرها؛ إذ يبدو أن الشعر لطول ارتباطه بالفروسية قد صار يعدّ من متمماتها"(٢). ولعل من شواهد ذلك ما روي عن سبب نظم "عنترة" معلقته، إذ حكوا أنه: جلس يوما في مجلس – بعد ما كان قد أبلى، وحسنت وقائعه، واعترف به أبوه وأعتقه– فسابه رجل عبسيّ، وعاب عليه سواد أمه وإخوته، وأنه لا يقول الشعر. فسبه "عنترة"، وفخر عليه، وقال له: "والله إن الناس ليترافدون للطعمة، فما حضرت أنت ولا أبوك ولا جدك مرافد الناس قط، وإن الناس ليدعون في الغارات فيعرفون بتسويمهم، فما رأيتك في خيل مغيرة في أوائل الناس قط، وإن اللبس ليكون بيننا فما حضرت أنت ولا أبوك ولا جدك خطة فصل، وإنما أنت فقع بقرقر، وأني لأحتضر البأس، وأوافي المغنم، وأعف عند المسألة، وأجود بما ملكت يدي، وأفصل الخطة الصماء، وأما الشعر فستعلم". فكان أول ما قال معلقته(٣). فها هو ذا عنترة لما فخر بكمال الفروسة تحداه عائبوه بأنه لا يقول الشعر.

---

(١) الفروسية، ١٥٧، ابن قيم الجوزية ت٧٥١هـ، تحقيق: مشهور سلمان، دار الأندلس، السعودية، ط١، ١٤١٤هـ – ١٩٩٣م.

(٢) المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها، ٨٥٥/٣، عبد الله الطيب، دار الفكر، بيروت، ط١، ١٩٧٠م. وما بين الاعتراض خارج النص.

(٣) ينظر: الأغاني، ٢٥٧/٩، أبو الفرج الأصفهاني، تحقيق: سمير جابر، دار الفكر، بيروت، ط٢.

-٣-

وتظهر قوة العلاقة بين الفروسة والشعر من خلال التعمق في شعر الشعراء الفرسان خاصة؛ لأنّ الفارس الشاعر حقيق بإدراك هذه العلاقة، والشاعر غير الفارس عندما يصف حدثاً بطولياً يعايشه، فإنه مهما يبرع في وصفه فلن يستطيع تصويره كالفارس الذي خاض الحروب وكان أحد قوادها، وليس معنى هذا أن ننقص من قدر هؤلاء الشعراء الذين جعلوا من فن الفروسة فناً أصيلاً في قصائدهم، فقد عرفوا قيمة هذا الفن، ونظموا فيه، وتغنَّوا بملَكاتهم في الشعر، وإجادتهم في الوصف، فلا يمكننا غمط شاعر مثل سيدنا "حسان" حقه حين قال قصيدته التي مطلعها[١]: (الوافر)

عفت ذاتُ الأصابعِ فالجواءُ ** إلى عذراءَ منزلُها خلاء

والتي جاء فيها:

عدِمنا خيلَنا إن لم تروها ** تُثيرُ النقعَ موعدُها كَداء

إلى آخر الأبيات، وهي تجسد مثالا جيدا قويا لشعر الفروسة على الرغم من عدم فروسة صاحبها على الأقل وقت أن قالها.[٢]

وقد أعطى الشعر للفارس القدرة على إبراز فروسته، فكثير من الفرسان لم يعرفوا ويشتهروا؛ لأنهم فرسان فقط، أما الفرسان الشعراء فقد استطاعوا أن يصلوا بشعرهم الصادق إلى أعماق النفوس، وأن يغمدوا سحر بيانهم في القلوب، مثلما أغمدوا سيوفهم في صدور الأعداء، فكانت مواجهتهم لأعدائهم بالفعل والقول معاً.

---

(١) ديوان حسان بن ثابت، ١٧/١، تحقيق: وليد عرفات، دار صادر، بيروت، ٢٠٠٦م.

(٢) يروى أنّ حسان بن ثابت كان لسنا شجاعا، فأصابته علة أحدثت فيه الْجبن، فكان بعد ذلك لا يقدر أن ينظر إلى قتال ولا يشهده. ينظر: تاريخ دمشق، ٤٣٣/١٢، ابن عساكر، تحقيق: عمر العمروي، دار الفكر، بيروت، ط١، ١٤١٩هـ – ١٩٩٨م.

-٤-

لقد عرف عن العصر الجاهلي كثرة الشعراء الفرسان، وهذه الكثرة تعود إلى طبيعة الحياة، فحياتهم قائمة على الحروب والغارات، ولقد قرن ابن سلام كثرة الشعر بالحروب، حيث قال: "وإنما كان يكثر الشعر بالحروب التي تكون بين الأحياء، نحو حرب الأوس والخزرج، أو قوم يغيرون ويغار عليهم، والذي قل شعر قريش أنه لم يكن بينهم نائرة، ولم يحاربوا"(١).

فقد كانت الحروب سبباً في ازدهار الشعر وانتشاره، وهيأت للشعراء " المجالات الواسعة للانطلاق بمواهبهم الشعرية بشتى نواحيها ومختلف اتجاهاتها، فكانت حافزًا قوياً، ومصدراً خصباً من مصادر الإلهام، أثارت في نفوس الشعراء مختلف الأحاسيس والعواطف"(٢)، وحب الحرب نابع من النشأة البدوية، فقد كان البدوي يحرص على تعليم أبنائه الفروسة؛ ليعدهم للحياة، وليكونوا عوناً له على دحر الأعداء، فهم فخر له ولقبيلته.

و كان العرب "لا يهنئون إلا بغلامٍ يولد، أو شاعرٍ ينبغ فيهم، أو فرس تنتج"(٣) وفي ذلك دليل حبهم للفروسة وتعلّقهم بها، وانطلقت أهمية الفروسة في حياتهم من كثرة حروبهم التي كثرت أسبابها لديهم؛ فمن أهمها: الغارات للاستيلاء على مواطن العشب والماء، والعصبية القبلية، وطلب الثأر، والأنفة والحمية.

---

(١) طبقات فحول الشعراء، ٢٥٩/١، ابن سلام الجمحي، تحقيق: محمود شاكر، دار المدني، جدة.

(٢) شعر الحرب حتى القرن الأول الهجري، ٥٧، نوري حمود القيسي، مكتبة النهضة العربية، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م.

(٣) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ٦٥/١، ابن رشيق، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، ط ٤، ١٩٧٢م.

-٥-

وعندما جاء الإسلام تغيرت المفاهيم، واختلفت الغايات عند هؤلاء الفرسان الشعراء، فأصبح الجهاد شغلهم الشاغل، وغاية حربهم النصر أو الشهادة في سبيل الله، حيث وجدوا طعماً حلوًا لفروستهم يقودهم إلى الجنان، ولهذا استمر حب الفروسة عندهم مع اختلاف الدافع وراء هذا الحب، فقد أصبحوا متبعين لمنهج القرآن في فروستهم وشعرهم.

وإذا كانت الحرب منبعا خصباً فاض منه الشعر الجاهلي، فقد ظلّ هذا النبع يمد الشعراء على مدى العصور التالية، ففي الفتوح الإسلامية وجد الشعر مجالاً رحباً أمده بفيضٍ وفير، إذ كانت موضوعات المعارك والوقائع السائدة في القصيدة آنذاك "وقد شغلت الفتوح الإسلامية المسلمين عن كلّ شيء في حياتهم، إلا الفروسية والشعر، ولا نكون مغالين إذا قلنا: إن الفتوح لم تقم إلا بهذين المظهرين من مظاهر الحياة العربية، فكانت الفروسية سبباً في نجاح الفتح، وكان الشعر نتيجة للفتوح" (١).

إذًا فلشعر الفروسة في العصرين الجاهلي والإسلامي حضور ظاهر، كما أن للفارس الشاعر مكانة عالية وصوتاً مسموعاً.

-٦-

ومن خلال الاطّلاع على كتب التراجم والتاريخ والأدب نجد عددًا غير قليل من الشعراء الفرسان في العصر الجاهلي، والإسلامي، ولكن هذا العدد أخذ يقلّ تدريجياً مع مرور الزمن، فكثرة الشعراء الفرسان لم تدم طويلاً، حيث بدأت

(١) شعر الفتوح الإسلامية في عصر صدر الإسلام، ١٦١، النعمان عبد المتعال القاضي، مكتبة الثقافة الدينية، ط١، ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م.

أعدادهم تتضاءل شيئا فشيئا في العصر العباسي وما بعده من عصور، إلى أن أصبحت قلتهم ظاهرة واضحة في الشعر العربي، ولهذه القلة أسباب، منها:

- البعد عن النشأة البدوية التي كانت من أهم مقومات الفروسة، والاتجاه إلى المدينة وحضارتها، والانشغال بالحياة وملذاتها.
- اندماج العرب بغيرهم من الأمم أضعف لديهم بعض القيم أو طمسها، وقد أصبح حكم العرب بيد غيرهم بعد أن كانوا هم القواد والسادة، وفي ذلك يقول المتنبي: (المنسرح)

وإنما الناس بالملوك وما ** تُفلح عُرْب ملوكُهم عَجَم[1]

فلم يعد للفروسة ذاك البريق الذي كان يلمع؛ حتى إنّ "نقاد العرب أغفلوا هذا الباب إغفالاً تاماً، فلم يذكروه بين أغراض الشعر العربي، ولعلّ سر هذا الإغفال يعود إلى أن الحماسة وشعرها لم يعد لهما مكان في العصر الذي كتبوا فيه أسس نقدهم لأغراض الشعر العربي، فإن العنصر العربي كان قد تراجع عن مكان الصدارة في قيادة الجيوش، وحلّ محلهم منذ قامت الدولة العباسية أجناس أخرى، كالفُرس، والترك... ولم يعد الشعراء يخوضون غمرات القتال، فيصفون إحساساتهم في ميادين الحروب، وإذا مجد الشعراءُ قتالاً أدخلوا هذا التمجيد في أغراضهم الأخرى من مدحٍ ورثاء، ولهذا لم يكن شعر الحماسة متميزاً بين فنون الشعر، ولكنه مندمج فيها، فلم يفرده النقاد بابٍ خاص يتحدثون عنه"[2].

وأصبحت الفروسة عند أكثر الشعراء رمزًا للبطولة أكثر من كونها واقعاً لا بد لهم من خوض غمارها، واكتفوا بالإشارة إليها في شعرهم بدلا من التماسها

---

(١) ديوان أبي الطيب المتنبي، ٥٩/٤.

(٢) أسس النقد الأدبي عند العرب، ٢٨٦، أحمد بدوي، مكتبة نهضة مصر، ط٣، ١٩٦٤م.

بأنفسهم، وترتب على ذلك قلة الشعراء الفرسان، لكن مع قلتهم، فالفروسة – خلقا ومعنى– دائمة ومتجددة في الذائقة العربية لن تزول على مدى الزمان والمكان.

وكما ارتبطت الفروسة بالحروب والمعارك ارتبطت أيضا بالغزل في غالب الأحيان؛ لأنّ المرأة العربية تفضل الفارس على غيره، فهو القادر على حمايتها والذود عنها، فهي تطلب عنده الأمان والحماية، ففي ذلك تمام الرجولة وكمالها، ولهذا ربط عنترة فروسته بغزله؛ لعلمه بأهمية ذلك الربط، الذي له وقْعٌ كبير في نفس محبوبته، فهو يظهر لها أنه يستحقّها؛ لبراعته وفروسته وشجاعته في الحروب.

-٧-

وخلاصة القول: إن الفروسة ملازمة للشعر والعلاقة بينهما قوية؛ فقد حرص الشاعر الفارس على أن يكون الشعر مرآة لحياته تعكس آماله وآلامه، وتصف بطولته بما تجود به قريحته من أبياتٍ صادقة يعرضها بشيء من التفصيل حيناً، والإيجاز حيناً آخر بعيدًا عن التكلف والغلو في الأغلب، وإن كانت مبالغات الفرسان مقبولة غالبا لأنهم ذووا أنفس أبية تأبى الاتسام بما ليس فيها.

ثانياً: مظاهرُ الفروسَة لدي الشاعرين

يعدّ عنترة[1] من أشهر الفرسان الشعراء الذين حفظتهم ذاكرة الأدب العربي والتاريخ الحربي للعرب – إن لم يكن أشهرهم على الإطلاق –، وربما يرجع ذلك إلى تمرد عنترة الذي كان من أبرز ملامحه محاولته الإعلاء من نفسه، وإظهار ذاته إزاء الآخرين، إذ على الرغم من سواد لونه وعدّه من فئة العبيد؛ فهو أعلى قيمة في فروسته وبطولته، فالفروسة عنده "صيحة التمرد ضد العالم، وغايتها إثبات الوجود والعيش بامتلاء، حس الفروسة هو من هذه الناحية حس الكفاح ضد الدهر" [2]؛ ولذا كانت الحرب عالمه يتحرك ويحيا بها، إذ هي التي تساعده في صياغة العالم من جديد.

---

(١) عنترة بن شداد العبسي أحد شعراء العرب وفرسانهم وأبطالهم ومن أصحاب المعلقات. كانت أمه أمة حبشية يقال لها زبيبة، وكان له أخوة من أمه عبيد وكان هو عبداً أيضاً؛ لأن العرب كانت لا تعترف ببني الإماء إلا إذا امتازوا على أكفائهم ببطولة أو شاعرية أو سوى ذلك. ولكن عنترة سرعان ما اعترف أبوه به لبسالته وشجاعته. وعنترة أحد أغربة العرب، وهم ثلاثة: عنترة، وخفاف بن ندبة السلمي، والسليك بن السلكة السعدي. وكان عنترة من أشجع الفرسان وأجود العرب بما ملكت يداه، وعاش طويلاً حتى كبر ومات نحو سنة ٦١٥ م، وقد اختلفت الروايات في سبب موته على ما هو منثور في المصادر الأدبية كالأغاني، ٢٥٢/٢، وغيره. وقد عشق عنترة في شبابه قبل أن يدعيه أبوه ابنة عمه عبلة فأبى عمه أن يزوجه ابنته وهو عبد فحفزه ذلك للمعالي وعظائم الأمور وهاج من شاعريته فاجتمع له الشعر السلس القوي والشجاعة النادرة والمروءة المأثورة. ينظر: أشعار الشعراء الستة الجاهليين، اختيارات من الشعر الجاهلي، اختيار: الأعلم الشنتمري ت٤٧٦هـ، ١٠٧/٣ وما يليها، تحقيق: محمد عبد المنعم خفاجي، طبعة: عبد الحميد حنفي، القاهرة، ط٣، ١٣٨٢هـ – ١٩٦٣م.

(٢) مقدمة للشعر العربي، ٢٩، علي أحمد سعيد، دار العودة، بيروت، ط٣، ١٩٧٩م.

وأما أبو فراس[1] فلا يقلّ في فروسته عن عنترة كثيرا، فهو أيضا من فرسان العرب المعدودين، المبدعين في قوة البأس، وسلاح الحرب، وتلك نتيجة طبعية للحياة التي كان يحياها، فلقد نشأ يتيما في حجر ابن عمه الفارس الهمام سيف الدولة، فتح عينه –أول ما فتحها– على فروسته وبسالته، وحروبه مع الروم الذين أفقدوه والده، وأذاقوه – أول ما ذاق– مرارة اليتم وذلّ الفقد، فنشأ بطلا فارسا محبا للحروب والمعارك يجد فيها لذة الأخذ بالثأر، والبوح عن النفس، والتخفف من آلام الواقع ومرارته.

ومن ثم فللفروسة حضور بارز في شِعرهما، إذ يدور معظمه على محور الحروب وما تتطلبه من فروسة وقوة وشجاعة، وتظهر الفروسة فِي أربعة أشياء، هي:

١– ركُوبُ الخَيل وَالْكرُّ والفرُّ بهَا.
٢– المطاعنةُ بِالرِّمَاحِ.
٣– المداورةُ بِالسُّيُوفِ.
٤– الرَّمْيُ بِالقَوْسِ.[2]

---

(١) أَبو فِرَاس: كُنْيَةُ الأَسَد، وهو من الفَرْس، وهو: الكَسْر، وكُلُّ قَتْلٍ فَرْسٌ، والأَصْلُ فِيهِ دَقُّ العُنُقِ وكَسْرُها. تاج العروس، مادة: ف ر س. وأبو فراس هو: الحارث بن سعيد بن حمدان التغلبي، أمير، شاعر، فارس، ولد على الأرجح بالموصل سنة ٣٢٠ هـ - ٩٣٢ م، قُتل أبوه وهو في الثالثة من عمره، فرعاه ابن عمه سيف الدولة الحمداني أمير حلب، له وقائع كثيرة قاتل فيها مع سيف الدولة، وكان سيف الدولة يحبه ويجّله، ويقدمه على سائر قومه، ونصبه أميرًا على منبج، وتعرض أبو فراس للأسر، وقد اختلفت الروايات في مرات أسره، وقُتل عام ٣٥٧هـ - ٩٦٩م. ينظر في ترجمته: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ٥٨/٣، ابن خلكان ت٦٨١هـ، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٠٠م. و: يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، ٥٧/١، أبو منصور الثعالبي ت٤٢٩هـ، تحقيق: د/ مفيد محمد قمحية، دار الكتب العلمية، بيروت– لبنان، ط١، ١٤٠٣هـ – ١٩٨٣م.

(٢) ينظر: الفروسية، ١٥٦، و: ٤٤٠.

وفيما يأتي محاولة لإبراز هذه المعاني، من خلال شعرهما:

١- ركُوبُ الخَيل وَالْكرُّ والفرُّ بهَا:

كان لعنترة العديد من الأشعار التي تصور تلك العلاقة التي تربطه بفرسه، الذي رافقه مشوار البطولة، وشارك معه في صنعه، فقد وصف لنا عواطِفَه إزاءَه، بل صوَّر لنا مُحاوَرته إيَّاه[١]، والتاريخ يسجل ذلك الحب، الذي لم يغفل الفارس نفسه تسجيله في شعره، فيقول في معلقته[٢]: (الكامل)

يَـــدْعُونَ عَنْتَـــرَ والرِّمـــاحُ كَأَنَّهـــا ** أَشْـــطانُ بِئْـــرٍ فِي لَبـــانِ الأَدْهَـــمِ
إِذْ يَتَّقُـــونَ بِيَ الأَسِـــنَّةَ لَـــمْ أَخِـــمْ ** عَنْهـــا ولكنِّـــي تَضـــايَقَ مُقْـــدَمِي
مـــا زِلْـــتُ أَرْمـــيهِمْ بثُغْـــرَةِ نَحْـــرِهِ ** ولَبانِـــهِ حتَّـــى تَسَـــرْبَلَ بالـــدَّمِ
فـــازْوَرَّ مِـــن وَقْـــعِ القَنـــا بِلبَانِـــهِ ** وشَـــكا إِلَيَّ بِعَبْـــرَةٍ وتَحَمْحُـــمِ
لو كان يَـــدْرِي مـــا المُحـــاوَرَةُ اشـــتَكَى ** ولَكانَ لو عَلِـــمَ الكَـــلامَ مُكَلِّمـــي

فعنترة يملك مقومات الفروسة، من حذق بأمر الخيل، إضافة إلى تلك العلاقة الإنسانية التي ربطت بينه وبين حصانه الأدهم، فكان تصويره لإيماءات حصانه وما يعتري دخيلته من التعبير بحيث تمثل الفروسة التي تطمح إلى الكمال، فهي فروسة تترفق بذلك الفرس الذي أعيته معارك فارسه وجعلته يناجيه ويشكو إليه، في حين أنه يسمعه ويأبه بما يعانيه ويحكي آلامه، إذ اللغة بينهما سهلة واضحة فهي إن لم تكن عبارات ومحاورات، فهي لغة الحمحمة والعبرات.

---

(١) السبع المعلقات مقاربة سيمائية أنتربولوجية لنصوصها، ٥٢٨، عبد الملك مرتاض، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ١٩٩٨م.

(٢) شرح ديوان عنترة، ١٤٧ وما بعدها، الخطيب التبريزي، تقديم: مجيد طراد، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.

فالأمر ليس مجرد ركوب وكرّ وفرّ وثبات على ظهر الفرس، إنما ثمة علاقة قوية، تظهر دائما بين الفارس وفرسه، تتأكد هذه العلاقة في شعر عنترة إذ يلح عليها في مواضع أخرى من شعره منها موضع آخر في المعلقة، وذلك إذ يقول:

هَلاَّ سأَلْتِ الخَيلَ يــا ابنــةَ مالِــكٍ ** إنْ كُنْتِ جاهِلَةً بِمَــا لَــم تَعْلَمِــي

إِذْ لا أزَالُ عَلَــى رِحَالــةِ سَــابِحٍ ** نَهْــدٍ تعــاوَرُهُ الكُمــاةُ مُكَلَّــمِ

طَــوْراً يُجَــرَّدُ للطَّعــانِ وتَــارَةً ** يَأْوِي إلى حَصِــدِ القِسِــيِّ عَرَمْــرِمِ

إنه يوجه عبلته – لو أظهرت جهلا بما تعلمه وما تتيقنه من شأن عنترة– إلى سؤال الخيل عن حال فرسه معه في خضمّ المعركة، ولا عجب حين يوجهها لسؤال الخيل دون الفوارس، إذ إن الخيل هي أعرف شيء بما يقاسيه ذلك الفرس الذي يمتطيه عنترة، فما أدرى الخيل بلغته ومعاناته، ثم يستطرد عنترة فيصف حالة ذلك الفرس القويّ الذي اعتوره الشجعان من كل رامٍ بسهم أو طاعن بسنان حتى أصبح مكلّما تظهر الجراح في معظم المواضع في جسده، ولا يخفى أثر التضعيف "التشديد" في قوله "مكلَّمِ" من إظهار هذه المجزرة التي تعرّض لها في معركته حتى لم يكد يبقى موضع من جسده معافى، وهو مع ذلك لا يكلّ ولا يملّ بل يخوض الغمرات بكل استبسال وشجاعة.

ولعل إلحاح عنترة على هذه الصورة يظهر مدى حبه لفرسه، وارتباطه به، فهو لا يأبه لنفسه وجراحه بقدر ما تهمه جراحات فرسه، فيسجل انفعالاته، راحما إياه وجاعلا من نفسه لسانا أمينا ناطقا بكل ما يجول بخاطره ويعتمل بفكره.

ولذا كان عنترة مؤمنا بفرسه، وبأنه صاحب له وناصح أمين لا يفارقه، ويخلص النصح له في أضيق المجالات وأحلك الأوقات، بل يفديه بنفسه حين

يقتحم بصدره دون فارسه، فلا عجب أن يبادله عنترة الشعور ذاته، فيقول[١]: (الخفيف)

إنَّ لي همـــةً أشـــدُّ مـــن الصخـــ ** ـــــــــــر ....

وجواداً مـــا ســـارَ إلاَّ ســـرَى البـــرْ ** قُ وَرَاهُ مـــن اقْتـــداحِ النّعـــال

أدهـــمٌ يصـــدعُ الـــدجى بســـوادٍ ** بـــين عينيـــه غـــرةٌ كـــالهلال

يفتـــديني بنفســـه وأفدّيـــ ** ـــهِ بنَفْسي يـــوْم القِتـــال ومـــالي

فهو يفتديه بنفسه وبماله، مع ملاحظة ما للتشديد في "أفدّيه" أيضا من قيمة في إثبات المعنى وإظهاره، والذي يوحي بتكرار التفدية والتعوّد عليها وسماح النفس بها، فكأني به يفصح بذاك عن مكنون صدره حقيقة لا مجرد شعر أُلهمه. هكذا أصبح عنترة يتعايش مع حصانه، ويعيش أفراحه وأتراحه وهمومه وآلامه، فلا يضيع فرصة فيها مجال للقول حتى يقول عن نفسه ويشرك معه جواده، مبينا شعوره به وتقديره للدور العظيم الذي يضطلع به، ليس في المعركة فحسب بل بعدها كذلك، فيقول مثلا[٢]: (الوافر)

وعدتُّ مخضـــباً بـــدَم الأعـــادي * وكَربُ الـــرَّكض قـــد خضَـــبَ الـــوادا

فبعد انتهاء المعركة لا يتحدث عنترة عن بطولته وشجاعته وحده، بل يشرك فيها حصانه الذي اشتد جريه فأجهده، وكثر كره وفره حتى اختضب بعرقه، وربما هذا شيء لا يلفت نظر الفارس، فالخيل معوّدة ذلك، إلا عنترة

(١) شرح ديوان عنترة، ١٣١.

(٢) شرح ديوان عنترة، ٤٩.

ذلك الفارس الحساس الذي يدرك مدى ما يكرب حصانه فيهتم له ويُعنى به مهما يكن ذلك هينا.

هكذا أصبح للخيل دور مهم في حياة عنترة حتى إنها باتت تمثل له اللذة المنشودة، والغاية المرجوة، فيقول[١]: (الطويل)

نديميّ إمّـا غبتمـا بعـد سـكرة ** فلا تذكرا أطـلالَ سـلمى ولا هنـدِ

ولا تَذْكرا لي غـيرَ خَيـلٍ مُغـيرةٍ ** ونقعِ غبارٍ حالـكِ اللّـون مسـوَدِّ

فـإنّ غبـارَ الصّـافِنات إذا عـلا ** نشِقتُ لـهُ ريحـاً ألـذَّ مـنَ النَّـدِّ

أما عن الكرّ والفرّ عند عنترة فسل به خبيرا، فهو القائل[٢]: (الطويل)

أمـارسُ خَـيلا للـهُجَيم كأنَّهـا * سَـعالى بأيـديها الوَشِـيجُ المُقَـوّم

فهو يدافع خيل بني الهجيم التي هي في بسالتها ومضيّها كالسعالى – ساحرات الجنّ– لا تقرّ على حال بين إقبال وإدبار، فحين يظفر بها فما أعظمه فارسا، خبيرا بمواطن الإقدام والإحجام.

وعنترة في مواضع كرّه لا ينسى أيضا بيان حال حصانه، وما يلاقيه من شديد بأس، فيقول[٣]: (الوافر)

أكـرّ علـيهمُ مُهـري كليمـا * قلائـده سـبائبُ كـالقرام

(١) شرح ديوان عنترة، ٥٩.

(٢) شرح ديوان عنترة، ١٤٠.

(٣) شرح ديوان عنترة، ١٤٤. والسبائب جمع سبيبة وهي الطريقة الطويلة من الدم، والقرام ستر أحمر خفيف يجعل على الهودج، ودفوف جمع دف وهو الجنب، وتقعّس تقدم وأصله من القعس وهو خروج الصدر ودخول الظهر، والمصرّ العاضّ المديم لعضّه، وفأس اللجام الحديدة التي تدخل في فم الفرس.

إذا شـــكّتْ بنافـــذةٍ يـــداهُ * تعـــرَّض موْقِفـــاً ضَـــنْكَ المُقـــام
كـــأنّ دفـــوفَ مرجـــع مرفقيـــهِ * تَوَارثَهـــا منـــازيعُ السِّـــهام
تقعّـــس وهـــو مضـــطمرٌ مصـــرٌّ * بقارحـــهِ علـــى فـــأْس اللّجـــام
يقدّمُـــهُ فتًـــى مـــن خيْـــرِ عَـــبْسٍ * أبـــوهُ وأمـــهُ مـــن آل حـــام

فالمهر يكرّ على ما به من كلوم وجراح – إذ جعل الدم يسيل على صدره فصار له كالقلادة الحمراء لون القرام، أما جنبه فمن كثرة ما أثّر فيه نزع السهام ورميها غدا كأنها توارثته لكثرة ترددها ووقوعها به– يتقدم وهو ضامر ممسك بحديدة اللجام في فمه لا يفلتها، ولا يتوانى، ولا غرو إذ المكرّ به فتى أبوه سيد عبس وأمه من كرام آل حام.

لقد غدت العلاقة بين عنترة وفرسه علاقة ودّ وصداقة، فليس عنترة وحده هو الذي يشعر بالفرس ويُحسّ به، بل أصبح الفرس كذلك يفهم لغته ويدرك مراده: (الطويل)

ولي فرسٌ يحْكـــي الرِّيـــاح إذا جـــرى * لأبعدِ شـــأو مـــن بعيـــد مـــرام[1]
يجيبُ إشـــاراتِ الضَّـــمير حساســـةً * ويُغنيكَ عـــن ســـوطٍ لـــهُ ولجـــام

أليس هذا النوع من الأفراس هو الذي من أجله حُمِد علقمةُ وفُضّل على امرئ القيس؟ حين قال فيه: (الطويل)

فـــأدركهنّ ثَانيًـــا مـــن عِنانـــه * يَمُـــرّ كغيـــثٍ رائـــح مُتَحَلِّـــبِ

في حين قال امرؤ القيس: (الطويل)

(١) شرح ديوان عنترة، ١٩١.

فللسَّـــوط أُلهـــوبٌ وللسَّـــاق دِرَّةٌ * وللزَّجر منـــه وَقْـــعُ أخْـــرجَ مُهـــذِب[1]

ولذا كان حصان عنترة هو حصنه الحصين الذي يكفيه عادية الأعادي، ويمنعه من كل شرّ يحيق به: (الوافر)

فكمْ ليـــلٍ ركبـــتُ بـــه جـــواداً * وقـــد أصـــبحتُ فـــي حصـــنٍ حصـــين[2]

فإذا تمكّن من ظهره وصال عليه وجال فلن يقف أمام قوتهما أحد مهما يكن في الفرسان، ولا يردهما عات من الجيوش، فهو القائل[3]: (الطويل)

فلاَ تَحْسَـــبُوا أن الجيـــوشَ تَـــرُدُّني * إذا جُلْـــتُ في أكْنـــافِكُمْ بحصـــاني

وأما أبو فراس فلم يبتعد كثيرا في تعلّقه بفرسه وإحساسه به عن عنترة، فهو القائل[4]: (الوافر)

وَمُهـــرِي لا يَمَـــسّ الأرْضَ زَهـــواً * كَـــأنّ تُرَابَهَـــا قُطْـــبُ النّبَـــالِ

كأنَّ الخيـــلَ تعـــرفُ مـــنْ عليهـــا * فَفـــي بَعـــضٍ عَلـــى بَعـــضٍ تُعَـــالي

فهل حقا تعرف الخيل مَن عليها؟ هل تشعر وتُحسّ أنها تحمل كرام الرجال؟ إن الأمر كذلك عند هؤلاء الفرسان الذين يطمحون إلى فروسة كاملة،

---

(١) ينظر الخبر في: الأغاني، ٢٠٨/٢٠، الأصفهاني، تحقيق: سمير جابر، دار الفكر، بيروت، ط٢.

(٢) من قصيدة منسوبة له، مطلعها:

ذكرتُ صبابتي مـــن بعـــدِ حـــينِ * فعَـــاد لِيَ القـــديمُ مـــن الجُنُـــونِ

وليست في ديوانه.

(٣) شرح ديوان عنترة، ١٩١.

(٤) ديوان أبي فراس الحمداني، ٢٧١، شرح: د/ خليل الدويهي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٢، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.

تمتزج فيها القوة باللين، والشراسة بالسماحة، ويستوي فيها الإنسان بالحيوان في الواجبات والحقوق، ولذا كان الفرس من جنس فارسه: (الوافر)

وَخَيلٌ – مِثــلُ مــن حَملــتْ – خيــارُ[١]

وهي: (الوافر)

كَـــرَائِمُ ، فَـــوْقَ أظْهُرِهَـــا كِـــرَامُ[٢]

ومن شدة ما تلوّنت الخيل بلون فرسانها، واصطبغت بصبغة نفوسهم، أصبحت تحقد على أعدائهم إن لم تنتعل قحاف رؤوسهم، وكأني بالحقد ينتقل من قلب الفارس إلى فرسه، إذ كلاهما صار نفسا واحدة لا تفريق بينهما، فيقول[٣]: (الطويل)

إلى كَمْ نَرُدّ البــيضَ عَنــهُم صَــوَادياً * وَنَثني صُدورَ الخيــلِ قــد مُلئــتْ حقــدَا

كما كانت عند عنترة في قوله[٤]: (الكامل)

والخيلُ ســاهِمةُ الوجُــوهِ كأنَّمــا * تُســقَى فوارسُــها نقيــعَ الحنظــل

أليس ذلك شعور الخيل بفوارسها؟ وهي أيضا تعلم –كما يعلم فوارسها– مَن صاحب اليد الطولى في الميدان، فيقول في ذلك[٥]: (الكامل)

والخيــلُ تعلــم والفــوارسُ أنــي * فرقــتُ جمعَهــمُ بطعنــةٍ فَيصَــل

وكذا، وقد تناصّ في قوله التالي مع سابقه في الشطر الأول[٦]: (الكامل)

---

(١) ديوان أبي فراس الحمداني، ١٥٨.

(٢) ديوان أبي فراس الحمداني، ٢٩٨.

(٣) ديوان أبي فراس الحمداني، ٨٩.

(٤) شرح ديوان عنترة، ١٢٨.

(٥) شرح ديوان عنترة، ١٢٧.

(٦) شرح ديوان عنترة، ٢١١.

والخيلُ تعْلَمُ والفوارسُ أنني * شيخُ الحروبِ وكهلُها وفتاها

بل إن الخيل غدت تأنس بمجرد ذكر فارسها، ويطمئن قلبها بذلك، فلا تمعن هربا من بعد أن حدثت نفسها به، قبل ذكره:

وَخَيلٍ خَفّ جَانِبُهَا فَلَمّا * ذُكِرْنَا بَيْنَهَا نُسِيَ الفِرَارُ[1]

وكما فدّى عنترة جواده بنفسه وبماله، يدعو له أبو فراس بأن يوقّى الأذى والضرّ وعاديات الليالي، على قدر ما يكفيه سطوة الأعادي، فيقول ممتنّا[2]: (الهزج)

كفاني سطوةَ الدهرِ * جوادٌ نسلُ أجوادِ

وقاهُ اللهُ فيما عا * شَ شَرَّ الزّمَنِ العَادِي

لكن ثمة ملمح للتطور البيئي والمجتمعي بين الفارسين، فبينما عنترة فارس واحد عليه اعتماد كل القبيلة، لا يحلّ أحد محلّه، ولا يطاوله فارس في منزلته، ولا يستطيع بلوغ منزلته في فروسته ومحاماته عن قومه سوى فرسه الذي نزل منه منزلة النفس من الشحيح بها، نرى الأمر اختلف عند أبي فراس فهو على فروسته ومحاماته إلا أنه ليس وحده المسلّط عليه الضوء في أرض الوغى؛ نراه يقول[3]: (الطويل)

أأُغْضِي عَلى الأمْرِ الذي لا أُرِيدُهُ * وَلَمّا يَقُمْ بِالعُذْرِ رُمحِي وَمُنْصَلي

أبى اللهُ والمهرُ المنيعيُّ والقنا * وَأبْيَضُ وَقّاعٌ عَلى كلّ مَفصِلِ

وَفِتْيَانُ صِدْقٍ من غَطارِيفِ وَائِلٍ * إذا قيلَ ركبُ الموتِ قالوا لهُ انزلِ

(١) ديوان أبي فراس الحمداني، ١٥٨.

(٢) ديوان أبي فراس الحمداني، ١٠٣.

(٣) ديوان أبي فراس الحمداني، ٢٧١.

إذا فتكاد الأنا تختفي هنا، إذ لم يصبح زمام الأمر بيد فارس القبيلة وحده، بل غدا هنالك جيش وله قائد وأمير، وسيف دولة ورئيسها، لا يمكن لأبي فراس أن يحيد عنه أو ينفرد بأمر الفروسة والشجاعة دون فتيانه وجيشه:

يَسُوسُــــهُمُ بِـــالخَيْرِ وَالشّـــرّ مَاجِـــدٌ * جَرْوَرٌ لأَذْيَـــالِ الخَمِـــيسِ المُـــذَيَّلِ

وعلى الرغم من أن فروسته تجعله المهيمن والمسيطر في ميدان الحرب، الآمر الناهي في المواقف العصيبة: (الوافر)

وقلـــــتُ لعصــــبتي: "موتــــوا كرامــــا !"(١)

فهو مع ذلك ليس له غناء عنهم، ومن ثمّ نلمح فارقا بين الفارسين ربما يكون أثرا لذلك التطور المجتمعي كما ذكرنا، وكما نلمس تأثر أبي فراس بعنترة واضحا جليا في كثير من كلماته، فعلى غرار ما قال عنترة(٢): (الكامل)

ولقد نزلتِ فلا تَظُنِّـــي غـــيرَه * منِّـــي بمترلـــة المُحَـــبِّ المُكْـــرَمِ

يقول أبو فراس، عن ابنته وقد زوجها أبا العشائر وأخذ بيت عنترة كاملا(٣): (الكامل)

و أديبــــةٍ إخترتَهــــا عربيــــةً * تُعــزى إلى الجـــدِّ الكـــريمِ وتنتمـــي

محجوبــــةٌ لمْ تبتــــذلْ أمّـــارةٌ * لمْ تَـــأتَمِرْ مَخدُومَـــةٌ لمْ تَخْـــدِمِ

ولقدْ نزلـــتِ فـــلاَ تظـــني غـــيره * مِنّـــي بِمَنْزِلَـــةِ المُحِـــبّ المُكْـــرَمِ

وكذا ما نلمحه في ردود أفعالهما تجاه طالبيهما في ساعة الجولان، فلا يكون الجواب أقوالا أو ما يكون من الشعر سجالا، إنما الجواب أفعال، يستبينها الطالب بعد فوات الأوان، يقول عنترة(٤): (الوافر)

---

(١) ديوان أبي فراس الحمداني، ٢٨٩.

(٢) شرح ديوان عنترة، ١٥٣.

(٣) ديوان أبي فراس الحمداني، ٣١٦.

(٤) شرح ديوان عنترة، ٢٠٣.

وكـــان إجـــابتي إيَّـــاهُ أني * عطَفتُ عليـــه خَـــوَّارَ العِنـــان
بأسمَرَ من رمـــاحِ الخَـــطّ لَـــدْنٍ * وأبيضَ صـــارِمٍ ذَكـــرٍ يَمـــانِ

وأما إجابة أبي فراس فليست عن ذلك ببعيد: (الطويل)

وداعٍ دعـــاني والأســـنةُ دونـــهُ * صـــببتُ عليـــهِ بـــالجوابِ جـــوادي[1]
جنبتُ إلى مهـــري المنيعـــيِّ مهـــرهُ * وَجَلّلْـــتُ مِنْـــهُ بِـــالنَّجيعِ نِجَـــادي

وكما أخبرت الخيل عن مقام عنترة في الحروب، وكم وجّه عبلة لسؤالها عن ذلك على نحو ما أسلفنا، نجد خيل أبي فراس تضطلع بذلك الدور أيضا في مقام كرّه وفرّه، ليس الأمر كذلك فحسب، بل تعدّاه إلى خيول الأعادي التي غدت تخبر هي الأخرى عن مقام فارسنا ومكانته عند معترك النزال: (الوافر)

أَلَمْ تُخْبِرْكِ خيلُـــكِ عـــن مَقـــامي * بِبَالِسَ يَـــوْمَ ضَـــاقَ بِهَـــا المَقَـــامُ![2]
وَوَلّـــتْ تَتّقـــي بَعْضـــاً بِـــبَعْضٍ * لهـــمْ – والأرضُ واســـعةٌ – زحـــامُ

مع ذلك التأثر نجد الفرق في العُدّة، وهو الذي فرضته طبيعة التطور وتغير النظام من القبلية إلى الدولية، فعدّة عنترة وعتاده، كما يقول: (الوافر)

جـــوادي نســـبتي وأبي وأمـــي * حُســـامي والســـنانُ إذا انْتســـبْنا[3]

وعُدّة أبي فراس هي ذاتها عدّة عنترة، لكنها زادت عند أبي فراس الرجال الأشداء، والفتية الأقوياء، فنراه يقول[4]: (البسيط)

يُصَانُ مُهرِي لأِمـــرٍ لا أبُـــوحُ بِـــهِ * والـــدرعُ والـــرمحُ والصَّمصـــامةُ الخَـــذِمُ

---

(١) ديوان أبي فراس الحمداني، ١١٠.
(٢) ديوان أبي فراس الحمداني، ٢٩٨.
(٣) شرح ديوان عنترة، ١٩٥.
(٤) ديوان أبي فراس الحمداني، ٣٠١.

وَكُلُّ مَـائِرَةِ الضَّـبْعَينِ مَسْـرَحُها * رِمثُ الجزيـرةِ والخـذرافُ والعـنمُ
و فتيةٌ قلـبُهمْ قلـبٌ إذا ركبـوا * يومـاً ؛ ورأيهـمُ رأيٌ إذا عزمـوا

ومع ذلك لا نعدم أن نشمّ منه رائحة الانفلات من ذلك ليعود إلى طبيعة الفارس الأول الذي لا تحدّه الحدود ولا تقيده القيود، إذ يقول[1]: (الطويل)

إذا صلتُ يومـاً لَمْ أجـدْ لِي مصـاولاً * وإنْ قلتُ يومـاً لَمْ أجـدْ مـنْ يقـاولُ!

وثمة شيء آخر يشي بملامح هذا التطور الحضاري عند أبي فراس، فلقد غدا للفارس ركن آخر غير سيفه وفروسته، يلجأ إليه عند الشدائد، ويلوذ به في النوائب، على خلاف ما كان على عهد عنترة، فليس سوى السيف والسنان، يقول أبو فراس[2]: (الخفيف)

لَسْتُ أرْجُو النّجاةَ مـن كـلّ مـا أخْـ * شَاهُ إلاّ بِأحْمَـدٍ وَعَلِـيِّ

فنراه هنا يلوذ بجاه النبيّ (ﷺ) والإمام علي كرم الله وجهه، بعيدا عن جاه السيف، وقوة السنان، لعل هذا نابع من شدة إيمانه، وقوة يقينه، وحبه لرسول الله (ﷺ) وعترته الكرام (رضي الله عنهم).

٢- المطاعنةُ بِالرِّمَاحِ:

لم تكن علاقة الود والمحبة بين عنترة وحصانه فحسب، بل إنه أدرك أن رمحه أيضا جزء منه لا ينفصل عنه، فإذا به يصور المنية شجرة عظيمة، هو أصلها أما فرعها فرمحه العسال الذي لا يخطئ طعناته، يقول[3]: (الكامل)

إنَّ المَنيَّـةَ يـا عُبيلـةُ دَوْحَـةٌ * وأنـا وَرُمحـي أصـلُها وفُروعهـا

(١) ديوان أبي فراس الحمداني، ٢٤٩.
(٢) ديوان أبي فراس الحمداني، ٣٥١.
(٣) شرح ديوان عنترة، ٩٢.

إذاً فقد قام الرمح منه مقام الغصن من الدوحة، لا يفارقه ولا يبطل عمله، وهو أصل الدوحة وجذرها؛ ولذا فويل لأعدائه أو لمن يقف في طريقه، كذلك غدا هناك اتصال معنويّ وجسر لغويّ ممدود بين الرمح وصاحبه، حتى استمدّ منه خبرته، فأصبح الرمح خبيرا بالقلوب شأنه شأن صاحبه، فيقول[١]: (الخفيف)

وسِـــــناني بالـــــدَّارعينَ خَـــــبيرٌ * فاسأليهِ عمـــا تَكـــون القلـــوبُ

وذلك أن القلب والفؤاد والكلى هي مواضع طعنه، وهي مواضع الموت المعجّل دون تروّ أو استبطاء: (الكامل)

فهناك أطعـــنُ في الـــوغى فرْســـاها * طَعْنـــاً يَشـــقُّ قُلوبَهـــا وكُلاهـــا[٢]

ولذا أصبَح الرمح يتفاعل مع عنترة فلا يخيب له طعنة يطعنها، وكأنه غدا مطاوعا له، يأمره فيأتمر بأمره ويقع من ضحيته الموقع الذي يريده فارسه، يقول[٣]: (الوافر)

ورُمحـــي مـــا طعنْـــتُ بـــه طَعينـــاً * فعـــادَ بعينِـــهِ نظَـــرَ الرشـــادا

وكم تمنى عنترة الذي فهم هذه اللغة لرمحه ان يفهمها غيره، ليتسنى لهم معرفة ما تجود به كامل فروسته في طعنه وضربه، وإذا كان هذا صعب المنال فهلا كان للرمح لسان فيخبر به: (الوافر)

ولـــو أنّ الســـنانَ لـــهُ لســـانُ * حكَـــى كَـــمْ شـــكَّ دِرْعـــاً بـــالفُؤَاد[٤]

(١) شرح ديوان عنترة، ٢٧.

(٢) شرح ديوان عنترة، ٢١١.

(٣) شرح ديوان عنترة، ٥٠.

(٤) شرح ديوان عنترة، ٥٨.

ولذا كان الرمح لعنترة هو النديم والسمير ليس مجرد عُدّة للحرب، أو سلاح في المعركة: (الوافر)

وأطْــرافُ القَنــا الخَطّــيِّ نَقْلــي * وريحــانِي إذا المضــمارُ ضــاقا[1]

ثم يؤكد المعنى مرة أخرى فيقول[2]: (الطويل)

وريحانتي رمحــي وكاســاتُ مجلســي * جماجمُ ســاداتِ حــراصٍ علــى المجــد

كذلك اتحد أبو فراس مع رمحه فصارا شيئا واحدا: (الوافر)

و لمــا ثــارَ ســيفُ الــدينِ ثرنــا * كَمَا هَيّجْــتَ آسَــاداً غِضَــابَا[3]

أسِــــنّتُهُ إذا لاقَــــى طِعَانــــاً * صــــوارمهُ إذا لاقــــى ضــــرابا

فهو سنان سيف الدولة وسيفه، ولا ننسى أن أبا فراس ما زال مسخرا فروسته وبطولاته لخدمة سيف الدولة، ليس كعنترة الذي لا يطاوله أحد في الميدان، ولا يدين لسوى شجاعته وفروسته بالفضل والعرفان، ويعرف أبو فراس كذلك مواقع الطعن والضرب، فكما أن عنترة يصيب بطعنه الكلى والقلوب كذا أبو فراس لا يعدو الصدور[4]: (الطويل)

وزرقٍ تشقُّ البردَ عــنْ مُهَــجِ العــدا * وتسكنُ منهمْ أينمــا ســكنَ الحقــدُ

فهو لا يدع الطعنة تروح هباء، بل هي متمكنة منهم تصيب حبات قلوبهم، وربما لا تقف عند ذلك الحد فتجول في الأحشاء وتقتحم ما بين الضلوع: (الوافر)

---

(١) شرح ديوان عنترة، ١٠٤.

(٢) شرح ديوان عنترة، ٥٩.

(٣) ديوان أبي فراس الحمداني، ٣٤.

(٤) ديوان أبي فراس الحمداني، ٩٢.

تركتُ الــرمحَ يخطــرُ في حشــاهُ * لَــهُ مَــا بَــينَ أضْــلُعِهِ مَجَــالُ[1]

ومن ثم يعرف الخصوم قيمة فارسنا فمن احتفظ منهم بشيء من عقله تحاماه، ومن غرته نفسه أخذ السنان فيه مأخذه فيدرك تلك الحقيقة لكن بعد فوات الأوان، ولات ساعة مندم:

يَقُولُ وَقَــدْ تَعَــدّلَ فيــهِ رُمْحــي * لأمــرٍ مــا تحامــاكَ الرجــالُ !

هذا ما يصرّ عليه أبو فراس في طعانه وضرابه أن يشهد له الأعداء قبل الأصفياء، ولذا يعاهد نفسه ورمحه ألا يعود إلا وبه آثار الطعن من ارتواء تارة وتحطّم أطوارا، فيقول[2]: (البسيط)

و لا أعودُ برمحــي غــيرَ مــنحطمٍ * و لا أروحُ بســـيفي غـــيرَ مختضـــبِ

حَتى تَقُولَ لَــكَ الأعْــداءُ رَاغِمَــةً * أضحى ابنُ عمــكَ هــذا فــارسَ العــربِ

وقد استوى لفارسنا ما يريده حتى غدت الفرسان أنفسها تناديه مذكرة دائما: (الطويل)

أحارثُ إنْ لَمْ تصــدرِ الــرمحَ قانيــاً * و لَمْ تدفعِ الجلــى فلســتَ بحــارثِ

٣- المداورةُ بالسّيُوفِ:

ما زال عنترة يلحّ على فكرة أن عدته من سيف ورمح وخيل هي رفاقه وأصحابه، والجديرة بأن تسأل عنه، إذ هي الأخبر بحاله، فيقول[3]: (الوافر)

سَلي سَيْفي وَرُمحــي عــنْ قِتــالي * همــا في الحــربِ كانــا لي رفاقــا

(١) ديوان أبي فراس الحمداني، ٦٢.

(٢) ديوان أبي فراس الحمداني، ٦٨.

(٣) شرح ديوان عنترة، ١٠٤.

وكما تفاهم عنترة مع الرمح ومع الفرس وبنى بينه وبينهما جسرا من الاتصال المعني، نجده يمدّ ذلك الجسر أيضا ليشمل علاقته بالسيف، فلقد غدا السيف ينفعل بالمواقف، وتتغير انفعالاته بحسب طبيعتها، فتارة سعيد يضحك، وتارة حزين يبكي، لكن متى يضحك؟ ومتى يبكي؟ (الخفيف)

يضحكُ السَّـيفُ في يـدي وَينـادي * ولـهُ في بنـانِ غـيري نحيـبُ[1]

وبالطبع من يستطيع فهم هذه اللغة وفكّ طلاسمها وسبر أغورها غير فارسنا الهمام عنترة المقدام، إنه لم يقف عند حد الفهم بل تجاوز ذلك إلى جعل السيف يتفاعل معه كأحد أتباعه أو مطاوعيه من أصدقائه وأحبابه:

وهوَ يَحْمي مَعِـي علـى كـلِّ قِـرْنٍ * مثلما للنسـيبِ يحمـي النسـيبُ

فكما يغار المرء ويحمى من أجل نسيبه وقريبه، كذلك فعل السيف في يد عنترة، فهو لم يعد مجرد آلة يضرب بها، بل أصبح ذا روح تجعله يُحس ويدرك ما يقوم به صاحبه، فلا ينبو عن مضاربه، فأينما يضرب به قطع، وهو – كما قال– رجل: (البسيط)

إذا انتضـى سـيفهُ لا ينفـعُ الحـذرُ[2]

ولذا أصبح للسيف عند عنترة وظيفة مهمة لا يتنازل عنها في المعارك، فهو طبيب يشفي الأدواء، ليس بعلاجها إنما بقطع رءوس أصحابها[3]: (الوافر)

وسيفي كـان في الهيجـا طبيبـا * يداوي رأس مـن يشـكو الصـداعا

---

(١) شرح ديوان عنترة، ٢٨.

(٢) شرح ديوان عنترة، ٨٠.

(٣) شرح ديوان عنترة، ٩٠.

ويقول[1]: (الوافر)

وفي كَفيّ صـــقيلُ المـــتن عَضْـــبٌ * يـــداوي الـــرأس مـــن ألم الصـــداع

أما أبو فراس فالسيف عنده من الأسباب التي صعدت به ذروة الشرف والعلا ولذا كان له الأهمية الأولى: (الطويل)

فمثلـــيَ مـــنْ نـــالَ المعـــالي بســـيفهِ[2]

وغدا الضرب بالسيوف صناعته الأولى، ووظيفته الأساس، مع كونه شاعرا لا يبارى في مجال القول: (الكامل)

وَصِناعَتي ضَـــرْبُ السّـــيُوفِ وَإنّـــني * مُتَعَـــرّضٌ في الشّـــعْرِ بِالشّـــعَرَاءِ[3]

وأيضا يضع السيف منه موضع اليد في معترك القتال فحين يعتنق الكماة في مجال المعركة لا يتصافح أبو فراس بالأيدي، إنما يده حينها سيفه، يمدّه لكل من يقف أمامه، فلا يرى منه مهربا ولا يجد عنه محيدا: (الوافر)

و يـــومٍ للكمـــاةِ بـــهِ اعتنـــاقٌ * و لكـــنَّ التصـــافحَ بالصِّـــفاحِ[4]

ولذا كان السيف في أولوياته مقدما على نفسه، فهو دائما يرويه من دماء أعاديه حتى إنه لا يترك حده يوما يجفّ: (الطويل)

وَحُمْـــرِ سُـــيُوفٍ لا تَجِـــفّ لهَـــا ظُـــبىً[5]

بل إنه – إن لزم الأمر– يظمأ حتى يرويه، فهو المقدم عليه: (الطويل)

---

(١) شرح ديوان عنترة، ٩٧.

(٢) ديوان أبي فراس الحمداني، ٢٥٩.

(٣) ديوان أبي فراس الحمداني، ٢٠.

(٤) ديوان أبي فراس الحمداني، ٨١.

(٥) ديوان أبي فراس الحمداني، ٩٢.

فَأَظمـــأُ حـــتى تَرْتَـــوي البِـــيضُ وَالقَنَـــا[١]

وأصبحت السيوف صاحبة القول الفصل، والحكم العدل، الذي لا يردّ، فهي المحكّمة في رقاب الأعادي، وإذا تكلمت فلا يعلو صوت فوق صوتها، يقول[٢]: (الطويل)

أحكّمُ في الأعـــداءِ منـــها صـــوارماً * أحكمهـــا فيهـــا إذا ضـــاقَ نـــازلُ

٤- الرَّمْيُ بِالقَوْسِ:

أما الرمي بالقوس وهو رابع مظاهر الفروسة – ومع كون القوس من عدة الفارس، وحظيت باهتمام بالغ من الشعراء– فنكاد لا نجد لهذا المظهر أثراً أو نسمع له صدى في شعر الفارسين "عنترة، وأبى فراس"، وعسى يكون مردّ ذلك أن الرمي بالقوس ليس أساسا في ميدان المواجهة بين الفرسان، فهو ليس كامتطاء صهوات الجياد والطعن بالرماح والضرب بالسيوف، تلك الأمور التي تحتاج إلى شجاعة ومواجهة عن قرب وقوة ساعد وبصر بأمور الحرب وأوقات الكرّ والفرّ، في حين أن الرمي بالقوس لا يحتاج إلى المواجهة التي لا محيص فيها عن الشجاعة والإقدام، فيكفي الرامي أن يوجه رميته نحو هدفه من بعيد مختبئاً كان من هدفه، أو مواجها له متيقنا أنه لن يصل إليه قبل أن يصيبه في مقتله، ولذا نجد الفوارس الشجعان لا يلجأون إلى رمي القسيّ إلا في رحلات الطرد والقنص، ومجالات اللعب والتسابق، وحالات نادرة في المعارك والحروب.

---

(١) ديوان أبي فراس الحمداني، ١٦٤.

(٢) ديوان أبي فراس الحمداني، ٢٥٩.

وعلى الرغم من أن عنترة لا يأوي إلى الرمي من بعيد؛ فهو لا يحتاج أن يكون بعيدا، بل يداني خصمه ويلاصقه حتى يضيق عليه ويكربه، نجده راميا جيدا مصيبا يستطيع أن يصيب هدفه ويُحكم رميته، فيخبرنا بذلك حين يقول[١]: (الوافر)

وهـــلْ يـــدري جُرَيَّـــةُ أنَّ نَبلـــي * يكـــونُ جفيرهُـــا البطـــلُ النجيـــدُ

فيقول: إن نَبله حين يرمي به يستكنّ في قلب البطل الشديد المصوّب إليه، فيكون كنانة لنبله، لأنه لا يخطئ هدفه.

أما أبو فراس فلم يقل لنا شيئا عن مقدرته في الرمي ومدى استطاعته الإصابة في ميدان المعارك، وربما ذلك لأن نفسه لم تحدثه قطّ بأنه يحتاج إلى مثل هذا الضرب من أنواع الفروسة في مجال الحروب، لكنه لا ينقصه ذلك اللون ليكون فارسا مكتمل الفروسة، فدلّ على أنه عارف به، يستطيع إصابة أهدافه، فذكر ذلك بعيدا عن المعارك والقتال في مجال الطرد والقنص، فقال في مزدوجته الطردية[٢]: (الرجز)

ثُمّ أخَـــذتُ نَبَلَـــةً كانَـــتْ مَعـــي * وَدُرْتُ دَوْرَيْـــنِ وَلَـــمْ أُوَسّـــعِ

حتى تمكنتُ فلـــمْ أخـــطِ الطلـــبْ * لكلِّ حتـــفٍ ســـببٌ مـــنَ الســـببْ

وهو يصف كيف رمى الظبية، فشق فؤادها ولم يخطئ في رميها، فنالت حتفها بسبب رميته، ولكل ميتة سبب.

(١) شرح ديوان عنترة، ٥٢. والجفير الكنانة التي تجعل فيها السهام.

(٢) ديوان أبي فراس الحمداني، ٣٦١.

ثالثاً: إثنولوجيّةُ العاداتِ والمعتقداتِ في شعر الفارسين

ترتبط أشعار الفروسة والبطولة لدى الشاعرين ارتباطا وثيقا بحياتهما، وسيرتهما، فموضوعها سجّل حافل، لسيرتهما، ومغامراتهما، وهواهما، ولذّاتهما، ولم يكد يأتي ذكر المواقف في الحروب، وحسن البلاء في ساح الهيجاء، إلا خدمة لهذه الأغراض.

ولذا فقد حفلت هذه الأشعار بما يصور العادات والمعتقدات، وما يبرز الفروسة النادرة، والشجاعة الخارقة من جهة، حيث وصف مشاهد الأبطال الذين يجندلون في ساحات الوغى، ووصف تلك الروح القائمة بين الفارس وفرسه ومحاوراته له، ثم بينه وبين سلاحه من سيف ومجنّ وسنان، ثم المعاناة والمآسي من جهة أخرى بالنسبة لكلا الشاعرين.

فأما معاناة عنترة فتتمثل في مآسي العبوديّة التي ورثها بحكم عبوديّة أمّه زبيبة، حيث كان النظام القبليّ لدى أهل الجاهليّة، فلقد كان ابن الأَمَة لديهم مستعبدا، لا يُلْحِقْ بالنسب.

ومع هذا يعشق ابنة عمه، ويتمنى أن تراه في منزلته الحقيقية التي يجلبها لنفسه بحدّ سيفه وشديد بأسه، ويحاول إقناعها بأنّ السواد لا صلة له بالشخصية إذا عَظُمَتْ، وبالنفسْ إذا كرمت، وبالعزيمة إذا كبرت. فأي شيء يعينه على ذلك أكثر من الشعر، دفاعا عن الهُويّة، وإثباتا للذات، وبرهنة على سمّو النفس، ونبل الأخلاق؟

فكان لا مناص لعنترة من قول الشعر ليصبح ذا قيمة عند الناس، ويحبَّ فتاته دون اعتراض عليه، ولا بد من أن يحسن بلاؤه في ساحة الحرب؛ للدفاع عن القبيلة، التي لولا دفاعه عنها لتعرضت للبوار، ويحاول إثبات ذلك في شعره، وهم لم ينكروا عليه.

ولا نبعد إذا قلنا إن المرأة مصدر شقاء عنترة، بل مصدر كل شقاء عاناه، في طفولته، أو في شبابه، كانت المرأة زبيبة أمه جارية سوداء أسرها أبوه، ولدته أسود مشقوق الشفة العليا حتى لقب بعنترة الفلحاء، وعيّر بالسواد طول حياته، وكانت المرأة سمية زوجة أبيه شابة فاترة العينين ساحرة الجمال، يقول عنها[1]: (الطويل)

تعزيت عــن ذكــرى سميــة حقبــة * فَبُحْ عنك منها بالــذي أَنْــتَ بــائحُ

ويروى الشطر الأول: وقد كنتَ تخفي حبّ سمراءَ حقبة... وربما تكون تلك رواية المواراة، والاستخفاء، من جريرة ما بينهما مما لا نعلمه، إذ لا نعلم علم اليقين حقيقة العلاقة بينهما، لكنه القائل أيضا[2]: (البسيط)

أمِنْ سُميَّة دَمــعُ العــينِ مــنْروفُ * لو أنَّ ذا منــك قبــل اليــوم معــروفُ

كأنها يومَ صــدتْ مــا تكلمــني * ظبيٌ بعســفانَ ســاجي الطــرفِ مطــروف

المــالُ مــالكم والعبــدُ عبــدكم * فَهلْ عَــذابُك عــني اليــومَ مَصْــروفُ

ويروى أيضا الشطر الأول من البيت الأول: أمِنْ سُهيَّة دَمعُ العينِ تذْريفُ...

فتنت سمية بما منحه الله من بسطة في الجسد ووفرة من النشاط، مما لم تجد عند زوجها الشيخ، فأخذت تستميله إليها، فلما أن صدّ عنها دبرت له المكائد ووشت به عند أبيه، فربطه وضربه، وكاد يعلوه بالسيف، وأخيرا عبلة

(١) شرح ديوان عنترة، ٤٥.

(٢) شرح ديوان عنترة، ٩٩.

الآنسة ذات الثغر العذب والخدّ الأملس، إنها الحبيبة الشاردة النافرة مصدر الشقاء الأبديّ[١].

وأما مآسي أبي فراس فتتمثل في أسره، وهو الأمير الأجلّ، والفارس البطل، الأبيّ الذي يؤثر فيه ذل الحبس والقيد لدى الأعداء أكثر وأشد من أثر الطعن بالرماح والضرب بالصفاح، ويزيد مآساته شجنا وأسى تغافل سيف الدولة وتباطؤه في عملية فدائه وفكّ أسره، وهو الذي ظن أنه لن يتوانى لحظة في بذل كل جهده وأقصى استطاعته من أجل تخليصه من يد الأعادي.

لقد كانت مرحلة الأسر المعين الذي منه استقى وجدان الشاعر، فمنه اغترف الحزن بلا حساب، ومنه كان حنينه، ومنه كانت ثورته ونقمته وشكواه وفخره، وبكلمة مختصرة: لولا الأسر لما كانت الروميّات تلك الخوالد في الشعر الوجدانيّ العربي.[٢]

من خلال كل ذلك تبرز صورة المجتمع بعاداته ومعتقداته، وما طرأ على الأفكار من تطورات وتغيرات لمحنا شيئا منها عند الحديث عن مظاهر الفروسة آنفا، ويتأتى الحديث هنا عن أربعة أشياء، يظهر فيها ذلك:

١- الحبُّ والمرأةُ.

٢- المجالسُ ومرتفقاتُها.

٣- ثنائيّةُ الشجاعةِ والإقدامِ مع الحِلمِ والعقل.

٤- فكرةُ الموتِ وطقوسُه.

ونفصّل القول فيها على النحو الآتي:

---

(١) ينظر: الفارس الماجد عنترة بن شداد، ١٧، د/ حسين نصار، مجلة الهلال، ١٩٧٢م.

(٢) ديوان أبي فراس الحمداني، ٩.

١- الحبُّ والمرأةُ:

تبوّأت المرأة، ضمن النسيج العربيّ مكانة بارزة في كثير من الأحايين؛ لذا شُبِّهت في أشعار متعددة، بالشمس، والمَها، والدمية المعبودة، والعسل، ونحوها من المشبَّهات بها التي تقوم دليلاً على عِظم مكانتها في المجتمع العربي، وكانت هذه المرأة، كما يقول أحد النقاد المعاصرين، هي "عالم الشعر... ومستودَع الجمال وصورته وتمثاله"(١)، وقد عمد الشعراء إلى وصف وجه المرأة، وأسنانها، وفمها، وريقها، وكلامها، وعينيْها، وجِيدها، ونحْرها، ونهديْها، وبطنها، وخصْرها، وقدميها، وساقيها، وردفها، وذراعيها، وأطرافها، وقِوامها، وحركتها.

وتأتي المرأة – في مجال الغزل والغرام- تارة بوصفها مصدرَ اللذاذة والمضاجعة، يُلهى بها، وتُطفأ فيها نار الشهوة الجنسية، وكان يُرى في هذا الصنف ما هو حسي فقط، ويُنظر فيه إلى المرأة بوصفها مجردَ أنثى تتلخص مهمتها الوجودية في خدمة الرجل، وإشباع نَهَمه الحيواني.

وتأتي تارة بوصفها الحبيبة التي يظهر الشاعر أمامها عاشقا ولْهان، متيّما بجمالها، ذا عاطفة رقيقة تجاهها، وغالبا ما تكون صورة المرأة فيها مثالية، أو أقرب إلى المثال؛ بحيث تتشكل من حولها هالة من النور الوهّاج، والجمال العبقري، وتكون امرأة عزيزة الجانب، مَصُونة الشرف.

ربما كان هذا النوع من التعامل الإيجابي مع المرأة – تعامل الحب العفيف- هو السائد في شعر الفرسان، ولا سيما عنترة وأبو فراس.

---

(١) عالم المرأة في الشعر الجاهلي، ٨، حسني عبد الجليل يوسف، دار الثقافة، القاهرة، ١٩٨٩م.

وليس ضربا من الخيال أن يجمع الفارس المغوار سحر البيان، فيملك السيف بيد وناصية القول بالأخرى، وينظم أروع قصائد العشق، فإنه متى خاض الرجل المعارك وصدّ الغزو عن قبيلته، علا شأنه، وظفر بالمرأة التي تمنى، ولا يكاد يخلو ديوان فارس شغل التاريخ ببطولاته وفروسته من قصائد حب عفيفة، ثرّى بها ديوان العرب.

وإذا انسحب هذا على كل شاعر فارس، فما بالنا بعنترة الفارس العاشق الذي كانت فروسته نابعة من عشقه وحبه لابنة عمه، حتى إن كل فرائده في مجالات البطولات وخوض غمار المنايا لا يغيب عنها طيف عبلة وهواها. ذلك الهوى الذي لولاه ما ذلّ لقومه، ولا لأحد من الناس، فهو القيد الوحيد الذي وقع في إساره، ولم يستطع منه فكاكا، ولولاه ما حدثت مآسيه: (الطويل)

ولــولا الهــوى مــا ذلّ مثلــي لمثلــهم * ولا خضَــعت أسْــد الفــلا للثعالــب[1]

فقد ذلّ عنترة لذلك الهوى، وتحمّل في سبيله كل ما يلاقيه ويعانيه، مخافة أن يدهمه الفراق، ذلك المارد الجبار، الوحيد الذي لم يستطع عنترة قتاله ولا الثبات له: (الوافر)

لَحــى اللهُ الفِــراقَ ولاَ رَعــاهُ * فَكَمْ قدْ شَــكَّ قلــبي بالنّبــال[2]

أقاتــلُ كــلَّ جبــارٍ عنيــدٍ * ويقــتلني الفــراقُ بــلا قتــال

وذلك الطيف الذي جعله يرى كل شيء من زاوية المحب العاشق، ويذوق طعم المرّ حلوا إذا كان في سبلها، ولا أدلّ على ذلك من هذين البيتين اللذين ذكرهما من أعماق المعركة[3]: (الكامل)

---

(١) شرح ديوان عنترة، ٣٥.

(٢) شرح ديوان عنترة، ١٣٠.

(٣) شرح ديوان عنترة، ١٩١.

ولقد ذكرْتُــكِ والرِّمــاحُ نواهــلٌ مــني * وبيْضُ الهِنْــدِ تقْطــرُ مــنْ دمــي
فــوددتُ تقبيــل الســيوفِ لأنهــا * لمعــت كبــارق ثغــركِ المتبسِّــم

بينما هو في غمار المعركة والموت يحصد الرءوس من كل جانب، وكأنه في بحر أمواجه متلاطمة، إنه بحر المنايا، وهو في قلب تلك الشدة –نهبة للسيوف والرماح– ينسى كل ذلك ولا يأبه به ويذكر حبيبته، ذكّره بها لمعان السيوف إذ هي تبرق في وسط غبار المعمعة إثر ضرباتها المتكررة، ذكّره لمعانُها ثغر عبلة الذي يُظهر حبات اللؤلؤ حين تتبسم لحبيبها.

ولا نغالي إذا قلنا إن عنترة ما خاطب بشعره على الإطلاق إلا نفسا واحدة هي تلك النفس التي تهمه، ولا يعتدّ بأحد غيرها على وجه البسيطة، إنها النفس التي منحته القدرة على بطولاته، كما منحته القدرة على تسجيل تلك البطولات، فما يقول إلا ليخبرها، ولا يصف إلا ليبرز لها الصورة واضحة جلية: (الوافر)

ســلي يــا عبلــةَ الجــبلينِ عنَّــا * وما لاقــتْ بنــو الأعجــام منَّــا[1]
أَبَــدْنَا جَمْعَهُــمْ لمــا أَتوْنــا * تمــوجُ مواكــبٌ إنســاً وجنــا
وراموا أكلنــا مــن غــير جــوع * فأشــبعناهم ضــرباً وطعنــا
ضــربناهم ببــيضٍ مرهفــاتٍ * تَقُــدُّ جُسُــومَهُمْ ظهْــراً وَبَطْنــا
وفرقنــا المواكــبَ عــن نســاءٍ * يزدْنَ علــى نســاءِ الأَرْض حُســنا
أنــا الحصــنُ المشــيدُ لآلِ عــبسٍ * إذا مــا شــادتِ الأبطــالُ حصــنا
شــبيهُ اللّيــلِ لــونيَ غــيرَ أَنّــي * بفعلي مــنْ بيــاض الصُّــبح أَســنى

(١) شرح ديوان عنترة، ١٩٤.

إن عبلة هي كل من يهمّ عنترة أن يخبره ويعلمه بحاله في تلك الصعاب والشدائد التي من أجلها يخوض غمراتها، ولذا يوجه خطابه إليها، طالباً منها الاستعلام عن حاله، وما يبلوه في أرض المعارك: سلي ياعبلة، سائلي يا عبيلَ عني خبيراً، أعبلة لو سالت الرمح عني، هلا سألت الخيل يا ابنة مالك، سلي يا ابنة العبسيِّ رمحي...

ولذا نراه دائما يغازلها ويسوق إليها الحديث، مع كونه لا يعدم مثلها، بل ربما من قد يفوقها حسنا، كما قال:

وفرقنا المواكبَ عن نساءٍ * يزدْنَ على نساءِ الأَرْض حُسنا

إلا أنه لا يرى سواها، ولا يرضى عنها بديلا، فهي التي فتحت مغاليق قلبه، واشتمل عليها فؤاده، ولذا فهو يحاول جاهداً أن يترضاها ويمحو عنه جريرة الذنب الذي لم يرتكبه، الذنب الذي كان عقدة حياته وأوقعه في كل حرج وضيق، إنه سواد لونه الذي لم يجلبه لنفسه، ولا اكتسبه بيده:

شبيهُ اللّيلِ لوني غيرَ أَنّي * بفعلي منْ بياض الصُّبح أَسنى

ويلحّ على هذا المعنى فيقول[1]: (الوافر)

لئِن أَكُ أَسوَداً فَالمِسكُ لَوني * وَما لِسَوادِ جِلدي مِن دَواءِ

وَلَكِن تَبعُدُ الفَحشاءُ عَنّي * كَبُعدِ الأَرضِ عَن جَوِّ السَماءِ

ما ضره سواده الذي لم يكن له يد فيه، إذا كانت خصاله بيضا، لا يستطيع أحد أن يدنّسها، أو يجد فيها ما يكدر صفو بياضها، فبعده عن الخنا بعد السماء عن الأرض، بعد الثرى عن الثريا.

---

(١) شرح ديوان عنترة، ٢٢.

وإذا كان بياض البشرة ليس ميزة في حد ذاته، فإن سواد البشرة ليس نقيصة كذلك، يعاب الإنسان عليها، ولا مثلبة تحط من قدره، فقيمة الإنسان ليس في سواد جلده أو بياضه وإنما فيما يحسنه من أعمال وما يتصف به من سلوك، يقول[1]: (الوافر)

وما عاب الزمان عليّ لوني * ولا حط السواد رفيع قدري

إذ ذكر الفخار بأرض قوم * فضرب السيف في الهيجاء فخري

سموت إلى العلا وعلوت حتى * رأيت النجم تحتي وهو يجري

ويمضي عنترة مقللا من قيمة السواد، وقيمة النسب، مقابل بياض الشمائل والفعل، لافتا سادة قومه إذا أرادوا تقييمه أن ينظروا إليه من زواية الشمائل والمحامد التي يتحلى بها وأفعال البطولة، ومواقف الرجولة، التي اشتهر بها، والتي لاشك أنها ترقى به إلى مستوى عال من المجد والسؤدد فوق مستوى اللون والنسب، يقول[2]: (الطويل)

سوادي بياض حين تبدو شمائلي * وفعلي على الأنساب يزهو ويفخر

أما أن يتجاهلوا ذلك كله، ويجعلوا تقييمهم منصبا، على شكله الخارجي وجلده الأسود، فذلك تقييم خاطئ، فإن العبرة بالمضمون وليس بالشكل، ولأن المظهر، ليس بالضرورة أن يعبر عن الجوهر، فهذا الأخير قد يكون أثمن وأنفس من ذلك بكثير، وعلى ذلك فالتعيير باللون سطحية وقصر نظر وعدم إدراك لحقائق الأشياء.

---

(١) شرح ديوان عنترة، ٨٣.

(٢) شرح ديوان عنترة، ٧٩.

راح عنترة يبذل قصارى جهده في إثبات هذه القيمة، ومراده إيصال هذه الحقيقة للإنسانة الوحيدة التي يهمه أن تفقه ذلك وتعرفه جيدا، مراده ترغيب عبلة فيه، لتتجاوز مشكلة اللون التي وقف قومها عندها، فتكون على بينة من أمرها وتقتنع بان ذلك لا يضيره ولا إياها في شيء، يقول[1]: (الوافر)

ألا يا عبل قد عاينت فعلي * وبان لك الضلال من الرشاد

وإن أبصرت مثلي فاهجريني * ولا يلحقك عار من سوادي

ولم تغب المرأة عن شعر أبي فراس لكن ليس كظهورها عند عنترة، فعند الأخير هي كل شيء، ومن أجلها كل شيء، وهي الحكم العدل، وقولها القول الفصل، أما أبو فراس فحبيبته تحبه ولا يحتاج التزلّف إليها في لحظة وحين كعنترة، فعنده المقومات التي لا تجعله فقط جديرا بمحبوبته، بل تجعل النساء كافة تهفو إليه الواحدة منهن وتتمنى أن تكون وحدها معشوقته، ولذا فهن يتنافسن عليه، ولا يخفى ذلك عن حبيبته، فيقول[2]: (الكامل)

ما أنسَ قولتهنَّ يومَ لقيني * أزرى السنانُ بوجهِ هذا البائسِ!

قالتْ لهنَّ وأنكرتْ ما قلنهُ * أجَمِيعُكُنّ عَلى هَوَاهُ مُنَافِسِي؟

إني ليعجبني إذا عاينتهُ * أثرُ السنانِ بصحنِ خدِّ الفارسِ

لكنه جعل الطعنة وأثر السنان في وجهه شارة شرف، تعجب حبيبته، فلا تبتأس من أجلها، إنها علامة النبل والشجاعة، وأمارة المواجهة والإقدام، فهذا شأن حامي الذمار، المدافع عن الحرم والحريم، فمن يُطعن في وجهه ليس كمن يُطعن في ظهره وقفاه:

---

(١) شرح ديوان عنترة، ٦٥.

(٢) ديوان أبي فراس الحمداني، ٢٠١.

حسنُ الثناءِ بقُبحِ مـــا فعـــل القَنـــا * بجمال وجـــهٍ نِعـــم ثـــوبُ اللابـــس

وربما تغار الحبيبة من ذلك الأثر الذي خلفته الطعنة، إن يشبه أثر قبلتها في وجهه، لكنها أن غارت من ذلك فهو مما يعجب أبي فراس، ولا يستحيي من هذا الأثر، فهو دليل البطولة والشجاعة: (الكامل)

لَمّـــا رَأتْ أَثَـــرَ السّـــنَانِ بِخَـــدّهِ * ظلـــتْ تقابلـــهُ بوجـــهٍ عـــابسِ![1]

خَلَفَ السّنَانُ بـــهِ مَوَاقِـــعَ لَثْمِهَـــا * بـــئسَ الخلافـــةُ للمحـــبِّ البـــائسِ!

إني ليعجـــبني إذا اشـــتجر القنـــا * أثرُ السنانِ بصـــحنِ خـــدِّ الفـــارسِ

فلعل موقف الحبيبة الأول تجلّدٌ منها أمام الحسّاد والشامتين، حتى إذا خلت لحبيبها، أظهرت أذاها، وما أصابها من الهم بسبب ذلك الأثر بعبوس وجهها، فيا لبؤسها! لكن فارسنا لا يزال مصمما على موقفها الأول، أن ذلك مما يعجبها، ويعجبه، فهو موقفه كذلك؛ لأنه قبح يخلّف ثناء حسنا.

وأحيانا يحتاج أبو فراس إلى إثبات شيء من فروسته وشجاعته لحبيبته ربما من باب التذكير لها، فيوجهها إلى السؤال عنه، كما كان يفعل عنترة، فيقول[2]: (الوافر)

سَلِي عَنّا سَـــرَاةَ بَـــني كِـــلابٍ ** بِبَـــالِسَ عِنـــد مُشـــتَجَرِ العَـــوَالي

وربما يحتاج إلى إثبات خصاله وفعاله ليس في مجال الحرب، بل في مجال السلم، في مجال طرائقه في الحيّ، والفخر بما يأتيه خلائق ومكارم: (الوافر)

سَلي فَتَيَاتِ هَـــذَا الحَـــيّ عَنّـــي ** يَقُلْنَ بِمَـــا رَأَيْـــنَ وَمَـــا سَـــمِعْنَهْ[3]

---

(١) ديوان أبي فراس الحمداني، ٢٠١.

(٢) ديوان أبي فراس الحمداني، ٢٧٨.

(٣) ديوان أبي فراس الحمداني، ٣٢٦.

وخصّ الفتيات هنا بطلبه توجيه السؤال إليهن؛ لأنهن أسمع للحديث، وأكثر نشرا له في مجالسهن ومسامراتهن.

وتظهر المرأة بصورة أخرى عند أبي فراس، إنها صورة المرأة التي ذلّت لجيشه وخيله، بسبب عداوة رجالها له، فاستنجدت به وطلبت منه الكفّ والغوث، فيَظهر جانبٌ من نبل الفروسة عنده، فيحمَى لهذه العربية، ويذعن أمام تذللها، ويردّ لها ما أخذ من قومها، ويعود عليهم بالجميل لأجلها، ويثني صدور الخيل ملآنة حقدا لم تشتف بعد من أعدائه، لكنه مع هذه الأخلاق النادرة للفروسة الحقة، والرجولة الكاملة، لم يعد يهمه أن تشتفي الخيل أو صدور الرجال: (البسيط)

بـــالمرج إذْ أمُّ بســـامٍ تناشـــدني * بناتُ عمكَ! يا حـــار بـــنَ حمـــدانِ[1]

فظلتُ أثـــني صـــدورَ الخيـــلِ ســـاهمةً * بِكُـــلّ مُضْـــطَغِنٍ بالحِقْـــدِ مَـــلآنِ

ونحـــنُ قـــومٌ إذا عـــدنا بســـيئةٍ * علـــى العشـــيرةِ أعقبنـــا بإحســـانِ

وكما نجد المرأة في شعر فارسنا في غزل عاطفيّ فيه المشاعر الحارة، والدموع على فراق الحبيب، فلا نعدم أن نجد فيه المرأة أيضا في صورة الغزل التقليدي من وقوف على الأطلال وتشبيهات تقليدية.[2]

٢- المجالسُ ومرتفقاتُها:

كان للعرب مجالس الطعام والشراب ومجالس اللهو والسمر، وكانت مرتفقات هذه المجالس لا تتجاوز غالبا: الكأس، والقدر، والرَّحَى، والدَّلْو، والقِرْبة، والجَفْنَة، والسِّكين، والفَأْس، والزَّند.

---

(١) ديوان أبي فراس الحمداني، ٢٣٩.

(٢) ينظر في ذلك: ديوان أبي فراس الحمداني، ١٥، ٢٧، ٣٣، ٤٥، ٥٨، ٦٠ إلخ.

وفي المنهج الأنثروبولوجي يُعْنَى الأنثروبولوجيّون، ضمن تحليلاتهم للحياة الاجتماعيّة البِدائيّة، وعنايتهم بتفاصيلها اليوميّة، بما يطلق عليه أصول المائدة وطقوسها.(١)

ولقد تحدّ ث عنترة في بعض قوله عن شيء من مجالس الشراب(٢): (الكامل)

ولقد شَرِبْتُ من المُدامــة بعــد مــا * رَكَــدَ الهــواجِرُ بالمَشــوفِ المُعْلَــمِ
بزُجاجــةٍ صــفراءَ ذاتِ أسِــرَّةٍ * قُرِنَــتْ بــأزْهَرَ في الشــمال مُفــدَّمِ
فــإذا شــربْتُ فــإنّني مُسْــتهلكٌ * مــالي، وعِرْضــي وافــرٌ لَمْ يُكْلِــمِ

إنّ مجالس الشراب كانت مَفْخَرةً للرجال، فكان الشاعر يفتخر بكونه يغدو عليها، وكأنّها كانت وقْفاً على كِرام القوم وسَراتِهم، بل كانوا يَعُدُّونَ ذلك فرْصةً لإشباع النّهَمِ الجَسَديّ من رغبة جامحةٍ فيه إلى هذا الشراب الذي كانوا يُلْفون فيه لذّةً عارمة، ومُتْعة غامِرَةً، وغالبا ما كان شراب المترفين يتمّ في الصباح، وفي الضُّحى، ويتباهون بذلك تدليلا على النعمة والرفاهية، إذ هم مخدومون لا يحتاجون أن يقوموا بعمل لأنفسهم فثمة من يتولى إصلاح شئونهم، فيصطبحون، و"الصباح يكون – عادةً– رطِيباً يحلو فيه المجلس كما أنّ المساء يُظلّه الليل، والليلُ يُطْبِقُ عليه الظلامُ، ولم يكونوا يمتلكون الوسائل المتطوّرة للإنارة فيسَهُروا في الحانات في ظروف مقبولة"(٣). وربّما اتخذوا من الظّهيرة مَجْلِسا

(١) ينظر: السبع المعلقات، ٥١٧.
(٢) شرح ديوان عنترة، ١٦٧.
(٣) ينظر: السبع المعلقات، ٥٢٨.

للشرب، في أثناء اشتداد الحرّ بالهاجرة، كما يُفْهَمُ ذلك من قول عنترة: بعد ما ركد الهواجر...، ولعل ذلك استرواح بالراح من حرّ تلك الهواجر.

وهناك الشارب المُدْمِن، الناشِد للَّذَّةِ، والملتمس لسَماع القِيان، والتمتّع برَقْصِهنّ، و لا يهمه التبذل الذي يؤدي إليه سكره وذهاب عقله فيزري عليه، أما عنترة فلم يكن كذلك؛ لأنه كان ذا تحكّم في نفسه، وإن ذهب بالسكر عقله:

فإذا شربتُ فإنني مُسْتَهْلِكٌ * مالي وعرضي وافرٌ لم يُكلم

وإذا صَحَوْتُ فما أَقصِّرُ عنْ ندىً * وكما عَلمتِ شمائلي وَتَكَرُّمي

إنه ليس الذي يزري به السكر، بل تجعله النشوة سخيا بما في يده، فيهلك ماله، أما عرضه فسليم لا يُنحى عليه بلائمة.

وربما كانت الخمر عنده سبيلا إلى إرواء غلّته، وإطفاء موجدته، ونار حبه، وشوقه إلى ابنة عمه، فنراه يقول[1]: (الكامل)

هاجَ الغرامُ فدُر بكأسِ مُدامٍ * حتى تغيب الشمسُ تحتَ ظلامِ

فتكون الراح راحته التي يفزع إليها كلما هاج به الغرام، وتلبست به الأحزان، واشتاق إلى حبيبته.

وقد يكون الشراب عند عنترة ذا طابع مختلف، فكأسه جماجم الأعادي، وخمره دم السادات، يروّي منها سنانه وسيفه: (الوافر)

سَلي سَيْفي وَرُمحي عنْ قِتالي * هما في الحربِ كانا لي رفاقا[2]

سقيتهما دماً لو كانَ يسقى * به جبلاً تهامة ما أفاقا

---

(١) شرح ديوان عنترة، ١٨٩.

(٢) شرح ديوان عنترة، ١٠٤.

وذلك بعد ارتوائه منها، فيقول[١]: (الطويل)

وريحانتي رمحـــي وكاســـاتُ مجلســـي * جماجمُ ساداتٍ حـــراصٍ علـــى المجـــد

فهذه أدوات شربه بيّنها، ثم يعود فيبيّن المشروب فيها، إنه دم أعاديه، وهو أيضا لبن المعامع التي يوقدها، وكأنه وليدها الذي ترضعه لبانها فيتقوّى به؛ فلا تؤثر فيه، فيقول[٢]: (الوافر)

وَإني قَـــدْ شَـــربْتُ دَمَ الأَعـــادي * بأقحافِ الـــرُّؤوس وَمـــا رَويـــتُ

وفي الحَرْبِ العَـــوانِ وُلِـــدْتُ طِفْـــلا * ومِنْ لـــبَنِ المَعـــامِعِ قَـــدْ سُـــقِيتُ

أصبح ذلك شغله الشاغل، صبوحه وغبوقه، وما يتعاطاه في كل وقت، فليس ثمة وقت لديه لغير ذلك من شرب الراح وغيره، فالليل والنهار على حد سواء مسخران لبلوغ أربه ونيل مرامه: (الوافر)

وكاســـاتُ الأَســـنَّةِ لي شـــرابٌ * ألـــذُّ بـــه اصـــطباحاً واغتباقـــا[٣]

وهو أيضا لا يجعل ذلك وقفاً عليه، بل من كثرة ما يسفكه من دماء الأعادي، ويتركه بركاً من دماء على وجه الثرى، ترك للندامي والورّاد ما يكفيهم ويغنيهم عن إتيان الحانات، فهو أقدر على سقيهم دائما أبدا، فيقول[٤]: (الطويل)

ولي منْ حسامي كـــلّ يـــوْمٍ علـــى الثَـــرى * نقوشُ دمٍ تغـــني النَّـــدامى عـــن الـــوردِ

---

(١) شرح ديوان عنترة، ٥٩.

(٢) شرح ديوان عنترة، ٣٨.

(٣) شرح ديوان عنترة، ١٠٤.

(٤) شرح ديوان عنترة، ٥٩.

وأما الطعام، فلم يقف عنده عنترة كثيرا؛ لأنه لا يهمه ملء بطنه بقدر ما يهمه أن يكون طيب المأكل: (الكامل)

ولقد أبيتُ على الطَّوى وأظلُّهُ * حتى أنال به كريمَ المأكلِ[1]

لكنه يطعم النسور والوحوش، فكم ترك من ضحايا جزر السباع وكل نسر قشعم، وكم أمر جوارح الطير أن تتبعه حتى تنال ما تؤمله من وجبة معدّة جاهزة لا عنت فيها ولا مشقة، فيقول: (الخفيف)

يا سِباعَ الفَلاَ إذا اشْتعل الحر * بُ اتبعيني من القفار الخوالي[2]

اتبعيني ترى دماءَ الأعادي * سائلاَتٍ بين الرُّبى والرِّمال

ثم عودي منْ بعد ذا واشكريني * واذكري ما رأيْتِهِ منْ فعالي

وخُذي منْ جَماجمِ القوْمِ قوتاً * لبنيكِ الصّغار والأشبال

وفي أحد أبياته أيضا يبرز لنا عادة من عادات العرب الرتيبة التي كانوا يؤدونها في حياتهم اليومية، إنها الطحن بالرحى، وذلك عن طريق وضع البذور بين قطبيها ثم تدويرها، فتطحن الحبوب بينهما، يقول في ذلك مشبها استدارته بالأعداء، وتطويقه إياهم، ودورانه حولهم بدوران قطبي الرحى[3]: (الطويل)

ودُرْنا كما دارَتْ على قطبها الرَّحى * ودَارَتْ على هام الرِّجال الصَّفائحُ

ويعني أنه دار بهم وعليهم، وطحنهم طحناً كما تطحن الرحى الحَبّ.

---

(١) شرح ديوان عنترة، ١٢٧.

(٢) شرح ديوان عنترة، ١١٧.

(٣) شرح ديوان عنترة، ٤٦. والبيت كما هو واضح لا يمت إلى المجالس بصلة، لكن أهمية ذكره هنا أنه أبرز هذه العادة المذكورة، التي ارتبطت بالرحى، والرحى من مرتفقات مجالس الطعام، كما سلف ذكره في بداية هذا المبحث.

وأما أبو فراس فلا يقف على مواطن الخمر، أو موائد الطعام، لأن قرى أضيافه يكون في خضمّ معاركه، فهو يسقي أعداءه، كما يسقي رماحه وسيوفه من دمائهم، فيقول في السقيا[١]: (الطويل)

وَسائِلْ قُشَيراً حينَ جَفّتْ حُلُوقُها * ألَمْ نسقها كأساً من الموتِ أحمرا

ويقول[٢]: (الوافر)

سقينا بالرماحِ بني قشيرٍ * ببطنِ الغُنْثُرِ السمَّ المذابا

وعلى طريقة الفرسان في قِرى الأضياف، بل الأعداء [٣]: (الطويل)

وَسائِلْ عُقَيلاً حينَ لاذتْ بتَدْمُرٍ * ألَمْ نقرها ضرباً يقدُّ السنوَّرا

وأيضا جوده يتعدى البشر إلى الطير والوحش، فكأنه ما به قتل أعاديه، ولكن يخشى إخلاف ما ترجو الذئاب، فيقول [٤]: (الطويل)

وَكَلْبٌ غَداةَ استَعصَموا بجِبالِهِمْ * رماهمْ بها شعثاً شوازب ضمَّرا

فأشبعَ منْ أبطالهمْ كلَّ طائرٍ * وَذِئبٍ غَدا يَطْوي البَسيطةَ أعْفَرَا

ولا بد لشاعر فنان مثل أبي فراس أن يكون عنده ذلك الإبداع التقليدي الذي يعنى بذكر الخمر والندامى ومجالسها، وهكذا فيقول على سبيل المثال[٥]: (الكامل)

---

(١) ديوان أبي فراس الحمداني، ١٣١.

(٢) ديوان أبي فراس الحمداني، ٣٥. والغنثر اسم مكان انتصر فيه سيف الدولة على القشيريين الذين خرجوا عليه.

(٣) ديوان أبي فراس الحمداني، ١٣١. والسَّنَوَّر السلاح أو هو ثياب الحرب كالدروع.

(٤) ديوان أبي فراس الحمداني، ١٣١. ويعني بكلب قبيلة كلاب.

(٥) ديوان أبي فراس الحمداني، ١٩.

وَخَرَائِـــدٌ مِثْـــلُ الـــدُّمَى يَسْـــقِينَنَا * كَأَسَيْنِ مِنْ لَحْـــظٍ وَمَـــن صَـــهْبَاءِ
وَإذا أدَرْنَ علـــى النَّـــدامَى كَأسَـــهَا * غَنّيْنَنَا شِـــعْرَ ابـــنِ أوْسِ الطّـــائي

إنه يحنّ إلى هذه المجالس، وربما كان ذلك رمزا لأيامه السعيدة التي كان يقضيها في بلاده بين أهله وأحبابه، والذي بات مذ فارقها قضيض المضجع لا يقر له قرار، ولا يهنأ بمنام:

فارقتُ حينَ شخصـــتُ عنـــها لـــذتي * وتركتُ أحـــوالَ الســـرورِ ورائـــي

ولذا فهو يذكرها، ويعدّد أماكنها، وكأنه يتلذذ بهذا الذكر؛ الذي من شأنه أن يُعيد الأحداث غضّة طريّة إلى ذاكرته من جديد، فتؤنس هذه الصورة – الحاضرة في ذهنه– وحدة غربته، وتُزيل وحشة كربته:

و نزلتُ منْ بلـــدِ الجزيـــرةِ مـــزلاً * خلـــواً مـــن الخلطـــاءِ والنـــدماءِ
فَيُمِرُّ عِنْدي كُـــلُّ طَعْـــمٍ طَيّـــبٍ * من رِيْقِهَـــا وَيَضِـــيقُ كُـــلُّ فَضَـــاءِ
ألشّـــامُ لا بَلَـــدُ الجَزيـــرةِ لَـــذّتي * و قُوَيق[1] لا مـــاءُ الفـــراتِ منـــائي
وَأبيتُ مُـــرْتَهَنَ الفُـــؤادِ بِمَنـــبجَ السّـــ * وداءِ لا بالرقـــــــةِ البيضـــــــاءِ
مـــنْ مبلـــغُ النـــدماءِ أني بعـــدهمْ * أُمْســـي نَـــديمَ كوَاكِـــبِ الجَـــوْزَاءِ
ولَقد رَعَيْتُ فليـــتَ شِـــعرِي مـــن رَعـــى * منكمْ على بعـــدِ الـــديارِ إخـــائي ؟

ولعله يعتذر عن قضية الشراب والندامى، ويقدّم بين يدي كلامه أنه ذكر ما ذكر مجاريا الشعراء في قولهم:

فحمَ الغـــبيُّ وقلـــتُ غـــيرَ ملجلـــج * إنّـــي لَمُشْـــتَاقٌ إلى العَلْيَـــاءِ
وَصِناعَتي ضَـــرْبُ السّـــيُوفِ وَإنّـــني * مُتَعَـــرّضٌ في الشّـــعْرِ بِالشّـــعَرَاءِ

(١) قويق: اسم نهر بالشام.

٣- ثنائيّةُ الشجاعةِ والإقدامِ مع الحِلمِ والعقل:

تلازمت تلك الثنائيّة في شعر الفارسين، لتبرز بذلك إحدى عادات العرب ومعتقداتهم، في كونهم لا يعترفون بالشجاعة وحدها؛ لأنها قد تكون في بعض المواطن طيشاً وتهوّراً، إذ إن الفروسة الحقة هي التي يتسلّح صاحبها، بالحزم مرافقاً للشجاعة والإقدام، فهو الذي يقدم حين يرى الإقدام مغنما، ويحجم حين يرى الإقدام مغرما، ولا عار عليه في ذلك، ولذا حين سئل عنترة عن سرّ قوته وشجاعته، وكيف أصبح أسطورة لا تهزم، أجاب: "كنت أقدم حين رأيت الإقدام عزما، وأحجم إذا رأيت الإحجام حزما، ولا أدخل إلا موضعا أرى لي منه مخرجا، وكنت أعتمد الضعيف الجبان فأضربه الضربة الهائلة يطير لها قلب الشجاع فأثني عليه فأقتله" (١).

فهو إذاً يمعن النظر، ويميز بين الشجاعة والتهوّر، ويفرّق بين مواطن الإقدام والإحجام، ولا يرمي بنفسه إلى التهلكة، ويعتمد على معرفته بالنفس البشرية ونوازعها المختلفة، ومخاوفها المتنوعة.

وقال الحطيئة لسيدنا عمر: وكان فارسنا عنترة فكنا نحمل إذا حمل ونحجم إذا أحجم(٢).

فتلك إذاً عادة الفرسان عندهم الحزم بجانب العزم، والإقدام لا يروغ عنه الإحجام، فليس الكرّ محموداً على المدى بل ربما يكون الفرّ والتولّي لحكمة، ولا يستنكف من ذلك المجرّب الخبير، وإن كان فارس الفرسان، ولقد صدق الله

(١) الأغاني، ٨/٢٥١.

(٢) الأغاني، ٨/٢٥١.

تعالى: ((وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفاً لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللهِ))[1]، فالفرار ليس مذموما إذا كان لهدف نبيل يخدم المعركة.

ولا يغيب عن عنترة لفت أنظارنا إلى تلك العادة منه، فيقول في إشارة عابرة[2]: (الكامل)

ذللٌ جِمـــالي حيـــثُ شـــئتُ مشـــايعي * لُبِّـــــي وأحفـــــزُهُ بِـــــرأيٍ مُبْـــــرَمِ

إذاً فهو يملك الشجاعة والقوة ومقومات الإقدام، ثم لا يكتفي بذلك دون أن يقوي أمره برأي محكم سديد،ونستطيع إدراك ذلك من بعض المواقف التي اتخذها وخاصة في الحرب، فقد كان هو صاحب الرأي الذي أدى إلى نصر العبسيين على بني سعد التميميين في يوم الفروق، فقد أشار على عبس بأن تستقبل أوائل الخيل المغيرة بالنواصي وتردها على الأعقاب [3]: (الطويل)

وقلت لمن قد أخطـــرَ المـــوتَ نفسَـــه * ألاَ من لأَمر حـــازمٍ قـــد بـــدا ليـــا

وقلت لهم ردّوا المغـــيرة عـــن هـــوىً * ســـــوابغَها وأقبلوهـــــا النواصـــــيا

ويبدو ذكاؤه وقدرته على الحكم على الأشياء، في رضوخه للرأي الذي أدلى به قيس بن زهير، على الرغم مما بينهما من خصومة، فقد حالف بنو عبس السعديين في أول أمرهم، وأقاموا معهم، لكن السعديين طمعوا في الخيل العتاق، والإبل الكرام، التي يقتنيها حلفاؤهم، فعزموا على الغدر بهم، وأحس قيس بما عزموا عليه وفطن إلى الليلة التي اختاروها لفعلتهم فأشار على العبسيين أن يوقدوا القناديل ويعلقوها في الشجر، وإلى جواها قرب الماء ليسمع

(١) الأنفال، ١٦.

(٢) شرح ديوان عنترة، ١٨٥.

(٣) شرح ديوان عنترة، ٢١٥.

خريرها، ثم أمر النساء بالرحيل مع الإبل من أول الليل، حتى إذا اطمأنّ أمر الفرسان بالرحيل ففعلوا، دون أن يشعر السعديون، وفي الفجر شنوا غارتهم المرتقبة فوجدوا البقعة خواء، وضاعت عليهم فرصة المباغتة(١).

أدرك أيضا أبو فراس هذه القيمة إذ كانت متأصلة في عروبتهم، فهو أيضا لا يعترف بالإقدام وحده، دون حزم، فالشجاعة وحدها تهوّر قد يورد التهلكة، لكن لا بد من إقدام الغلام الفتيّ، مع عقل وحلم الشيخ الذكيّ: (الوافر)

أتُنكِرُنِي كَأنّكَ لَسْتَ تَدْري * بِأني ذَلِكَ البَطَلُ ، المُحَامي(٢)
وَأني إذْ نَزَلْتُ عَلى دُلُوكٍ * تَرَكْتُكَ غَيْرَ مُتّصِلِ النّظَامِ
وَلَمّا أنْ عَدَدْتُ صَلِيبَ رَأيي * تَحَلّلَ عِقْدُ رَأيِكَ في المَقَامِ
وَكُنْتَ تَرَى الأنَاةَ ، وَتَدّعِيها * فأعجلكَ الطعانُ عنِ الكلامِ
و بتَّ مؤرقاً منْ غيرِ سهدٍ * حمى جفنيكَ طيبَ النومِ حامِ
و لا أرضى الفتى ما لمْ يُكمِّلْ * برأيِ الكهلِ ، إقدامَ الغلامِ

إنه يحاور قائد الروم، في مناظرة جرت بينهما في أمر الدين، وكأن الدُّمستق بجهله وضلاله، ودنياه الزائفة، أراد استمالة أبي فراس إلى دينه، وخروجه من إسلامه، لكن أبا فراس رد عليه بكل حزم وعزم، لا يرهبه الأسر مبيناً أنه صليب الرأي ذو عقل وحزم، فلا يهنأ ذلك العلج الغبيّ بمراده، ولا

(١) الفارس الماجد عنترة بن شداد، ٢٠.
(٢) ديوان أبي فراس الحمداني، ٣١٨.

ينبغي أن يسرّ بدائرة الليالي، وما فيه أبو فراس من أسر، فما ذاك عن عجز أو جبن، إنما هو القدر المحتوم، يقول[١]: (الطويل)

أسرتُ وما صحبي بعزلٍ لدى الوغى * ولا فرسي مهرٌ ولا ربهُ غمرُ
و لكنْ إذا حمَّ القضاءُ على امرئ * فليسَ لهُ برٌّ يقيهِ، ولا بحرُ

فلو لقيه في ساح الوغى لكان لهما شأن آخر، كما حدث لهما في إحدى المعارك في بلدة دُلُوك، وكان الظفر لفارسنا الهمام، لكنه أُخذ على غرّة؛ أخذه ابن أخت الملك، وبينما كان في ألف فارس كان أبو فراس في سبعين فقط، وقد خرجوا لا لحرب، بل للهو وقنص، ومع ذلك ما تمكنوا منه إلا بعد أن قتل فيهم مقتلة عظيمة، وكلّ الفرس من تحته، وفلّ السيف، وتكسّر الرمح في يده، وقُتل أصحابه.

ويؤكد المعنى أيضا في مقام آخر، فيقول[٢]: (الكامل)

إنْ لمْ تكنْ طالتْ سنيَّ فإنَّ لي * رأيَ الكُهُولِ وَنَجْدَةَ الشّبَانِ

فهو على حداثة سنه، قد اكتمل عقله، فزينه برأي الكبار من السادة والحكماء، مع قوة بأسه ونجدته، فجمع بين الحُسنيين.

ولا يكتفي أبو فراس بان يكون كذلك وحده، بل ينبغي أن يكون أصحابه كذلك أيضا، فلا يصطحب متهورا عنيفا، فيقول في ذلك[٣]: (البسيط)

وفتيةٌ قلبهمْ قلبٌ إذا ركبوا * يوماً ورأيهمُ رأيٌ إذا عزموا

(١) ديوان أبي فراس الحمداني، ١٦٥.
(٢) ديوان أبي فراس الحمداني، ٣٤١.
(٣) ديوان أبي فراس الحمداني، ٣٤١.

هذا الحلم والرأي المصاحب للشجاعة والإقدام هو المكمّل للفروسة النادرة، التي من شأنها أن تجعل الفارس النبيل، والبطل الشجاع دائما في مقام كريم لا ينازع فيه، ليس الإغضاء والسكوت الذي يجعله منتهَك الحقوق، أو مستهانا به، أو مستباحا للأباعد والأداني، لأنه لا بد للحلم من البوادر التي تمنع صفوه أن يُكدّرا، وفي ذلك يقول عنترة[1]: (الوافر)

حَلُمْتُ فما عَـرَفتُمْ حـقَّ حِلمـي * ولا ذكـرَتْ عشـيرَتكُمْ ودادي
سأَجْهلُ بعـدَ هـذا الحلـم حـتى * أُريـقَ دَمَ الحواضِـر والبَـوادي

٤- فكرةُ الموتِ وطقوسُه:

إن فكرة الموت وطقوسه هي ما يمثل قناعة الفارس الحقة، يؤمن بها ولا تغيب عنه، وفي ذلك يقول أبو فراس: (الوافر)

متى ما يـدنُ مـنْ أجـلٍ كتـابي * أمُـتْ بَـينَ الأعِنّـةِ وَالأسِـنّهْ[2]
فـلاَ يـأمرنني بمقـامِ ذلٍ * فمـا أنـا بـالمطيعِ إذا أمرنـهْ
وَمَـوْتٌ في مَقَـامِ العِـزّ أشْـهَى * إلى الفرسـانِ مـنْ عـيشٍ بمهنـهْ

ولعنترة في هذا المعنى [3]: (الكامل)

بَكَرَتْ تُخَـوِّفُني الحُتـوفَ كـأنَّني * أصبحتُ عـن غـرَض الحُتـوف بمَعْـزِلِ
فأجبتُهـا أنّ المنيَّـةَ مَنْهَـلٌ * لا بـدّ أن أُسْـقَى بكـأس المنـهلِ
فاقْنَيْ حيـاءكِ لا أبالـكِ واعلمـي * أَنّـي امـرؤ سـأموت إن لم أُقْتَـلِ

(١) شرح ديوان عنترة، ٥٨.
(٢) ديوان أبي فراس الحمداني، ٣٢٧. والمهنه: المهانة والعبودية.
(٣) شرح ديوان عنترة، ١٢٨.

ويجدر بالذكر أن قناعة الفرسان هذه لا تقف عندهم، بل تتعداهم ليعرفها أقرب الأقربين إليهم، ويؤمنون بها، فلا يلحونهم على شجاعة نادرة، أو بسالة بادرة، يقول أبو فراس[(١)]: (الطويل)

وقدْ علمتْ أمــي بــأنَّ منــيتي * بحـــدِ ســـنانٍ أو بحـــدِ قضـــيبِ

قد أصبح ذلك أمراً واقعا ومسلّما به، إن عاجلا أو آجلا، أخلاق الفروسة تلك هي ما يدفع الفارس إلى الاستبسال في أرض المعركة، فلا يفر، ولا يولي الأدبار، وفي حالة فارسينا هما بطلان قائدان، فكيف يفران؟ وكلاهما أول فارس يغشى الميدان، وأول ضارب بالحسام[(٢)]: (الكامل)

وأكـــون أول ضــــاربٍ بمهنـــدٍ * يفري الجمــاجمَ لا يريــدُ ســـواها

وأكـــون أولَّ فـــارسٍ يغشـــى الـــوغى * فـــأقود أوَّل فـــارسِ يغْشـــاها

وجميع الفرسان على مرّ العصور يأبون الموت في الفراش، ويتمنون الموت في أرض المعركة، وما أشهر ما قاله سيدنا خالد بن الوليد عند موته: "لقد لقيت كذا وكذا زحفاً وما في جسدي موضع شبر إلاّ وفيه ضربة أو طعنة أو رمية، ثم ها أنذا أموت حتف أنفي كما يموت العير، فلا نامت أعين الجبناء"، قال أبو عبيد: يقول: فما لهم يجبنون عن القتال ولم أمت أنا به، إنّما أموت بأجلي[(٣)].

---

(١) ديوان أبي فراس الحمداني، ٥٤.

(٢) شرح ديوان عنترة، ٢١١.

(٣) الأمثال، ٣١٧، أبو عُبيد القاسم بن سلاّم ت٢٢٤هـ، تحقيق: د/ عبد المجيد قطامش، دار المأمون للتراث، ط١، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م.

ولعل موت فارسينا في أرض المعركة قد حقق لهما هذه الأمنية التي ارتبطت بعالمها الفروسي، الذي يعي الفرق بين الموت قتلاً، والموت حتفاً، وكان موتهما أيضا تحقيقا لدعوة عنترة [1]: (الطويل)

فيا رَبُّ لا تجْعلْ حَياتي مَذَمَّةً * ولا مَوْتتي بين النِّساءِ النَّوائحِ

ولكن قَتيلاً يَدْرُجُ الطَّيرُ حوْلَهُ * وتشربُ غربانُ الفلا من جوانحي

وثمة مفارقة بين شاعرينا، في فكرة الموت المسيطرة عليهما، إذ إنها في حق عنترة وهبت له الحياة، حتى عُمّر طويلا، فقد كان يخوض غمار المنايا كارهاً الحياة، ويتمنى أن يأتيه الموت فيستقبله، حلو المذاق على مرارته، سهل التلاقي على صعوبته، فتحاماه الأبطال، فتأخر أجله، حتى أصبح هو كأنه الموت المساق إلى أعدائه، وإن كان الموت يصبر فعنترة لا يصبر، فيقول[2]: (الطويل)

أنا الموتُ إلاّ أنني غيرُ صابرٍ * على أنفس الأبطالِ والموتُ يصبرُ

بل إنه ذهب إلى أبعد من ذلك؛ إذ ادّعى أن الموت لو تصور، فإما أن يتصوّر بصورته [3]: (الكامل)

إنَّ المنيَّةَ لو تُمثَّلُ مُثِّلتْ * مثلي إذا نزلوا بضنك المنزل

---

(١) من أبيات منسوبة له، أولها:

أُعاتبُ دَهراً لا يَلينُ لناصِح * وأخفي الجوى في القلب والدَّمعُ فاضحى

وليست في ديوانه.

(٢) شرح ديوان عنترة، ٧٩.

(٣) شرح ديوان عنترة، ١٢٨.

وإما أن يكون مجدّلا بسيفه [١]: (الطويل)

إذا ما لَقيتُ المَوْتَ عَمَّمْتُ رأْسَه * بسيف على شربِ الدما يتجوهرُ

هذا هو عنترة في الحروب، وأما حصانه فدلاّل المنايا، يشري ويشتري فيها، كيف شاء، ويسوقها للناس حيثما وقف[٢]: (الوافر)

حصاني كانَ دلاّل المنايا * فخاض غُبارها وشَرى وباعا

أو يكون عنترة نفسه دلال المنايا، وسنانه تاجرها يبيع ويشتري، على حسب مراده[٣]: (الخفيف)

وإذا قامَ سوقُ حربِ العوالي * وتلَظّى بالمرْهفاتِ الصقّال

كنت دَلاَّلها وكان سناني * تاجراً يشتري النفوس الغوالي

أو يكون ملك الموت قابعا مستكنّا في حدّ سيفه، فيقول مخاطبا حبيبته معلما إياها بحال سيفه عند مشتجر القنا، وتصافح الصفاح: (الخفيف)

فسينبيكِ أنَّ في حدِّ سيفي ملكُ الموتِ حاضرٌ لا يغيبُ[٤]

أما أبو فراس فلم تمهله المنية أن عاجلته وهو لم يتجاوز السادسة والثلاثين، ولعل هذا عائد إلى أن إقباله على كأس المنية في الحرب كان بحذر وحساب، لأنه بطل محب لحياته، يريد أن يحقق الانتصار تلو الانتصار، يتمنى أن يجلس يوما في صدر المجالس سيداً على الدولة كلها، ليس أميرا فحسب، بل سيدا ورئيسا فلقد كان يَعُدّ نفسه ندّا لسيف الدولة [٥]: (الطويل)

---

(١) شرح ديوان عنترة، ٧٩.

(٢) شرح ديوان عنترة، ٩٠.

(٣) شرح ديوان عنترة، ١٣١.

(٤) شرح ديوان عنترة، ٢٧.

(٥) ديوان أبي فراس الحمداني، ١٣١.

فلاَ وأبي مـــا ســـاعدانِ كســـاعدٍ * وَلا وَأبي مـــــا سَـــــيّدَانِ كَسَـــــيّدِ

يقول: أنا ساعد وأنت آخر، وأنا سيد وأنت آخر، فأنت بحاجة إليّ؛ إذ ليس واحد كاثنين.

ولهذا وغيره من مثله لم يكن عجبا أن يبطئ سيف الدولة في افتدائه وتحريره، ولعل أبا فراس قد بالغ في تقدير السموّ الفكري والشعري والارتفاع الخلقي والإنساني لسيف الدولة، فقال ما قال ناسيا نوازع الحاكم، ووساوس السلطان(١).

وظل أبو فراس جنديا في جيش سيف الدولة الذي رباه ونشّأه(٢): (الوافر)

وهلْ عـــذرٌ و ســـيفُ الـــدينِ ركنـــي * إذَا لَـــمْ أرْكَـــبِ الخُطَـــطَ العِظامَـــا؟

وَرَبّـــاني فَفُقْـــتُ بِـــهِ البَرَايـــا * وَأنْشَـــأني فَسُـــدْتُ بِـــهِ الأنَامَـــا

لكن إذا رضي بالدون من سيف الدولة، لما له من مكانة ومنزلة وسبق تربية، أفيرضى به من ابنه –الضمير لسيف الدولة– وابن أخته –الضمير لأبي فراس– سعد الدولة أبي المعالي؟ الذي آل إليه المُلْكُ بموت أبيه، فأصبح المَلِكَ الجديد، وأصبح الوصيُّ عليه وعلى المملكة الغلام التركيّ "قرغويه"، أيذلّ الفارس العربيّ النبيل والبطل الأمجد "أبو فراس" لذلك الغلام التركيّ، وابن أخته الصغير سعد الدولة؟ بالطبع لا، فكان في ذلك مقتله، قتل لما حرص على الحياة وربما على السلطة وكرسي المملكة، أو قطع حمص من المملكة وجعلها خاصة له، وهنا ينطق الأسى وتفصح الحسرة، فيما نعى به نفسه، وهمهم به وهو

---

(١) أبو فراس الحمداني البطل المحارب والفارس الأسير، ٦٦، د/ سيد نوفل، مجلة الهلال، ١٩٧٢م.

(٢) ديوان أبي فراس الحمداني، ٢٩٠.

يسرج لجام فرسه، ويودّع ابنته، قبل خروجه إلى المعركة الفاصلة، والنهاية الآسية: [١] (مجزوء الكامل)

أبنـــــيتي ، لا تحـــــزني ** كـــــلُّ الأنـــــامِ إلى ذَهـــــابِ
أبنـــيتي ، صـــبراً جميـــــ ** ـــلاً للجَليـــلِ مِـــنَ المُصَــاب
نُوحِي عَلَــيّ بِحَسْــرَةٍ ! ** من خَلــفِ سِــترِك وَالحجــابِ
قُـــــولي إذَا نَـــــادَيْتِني ** و عييـــتُ عـــنْ ردِّ الجـــوابِ
زينُ الشـــبابِ أبـــو فـــرا ** سٍ لمْ يُمَتَّـــــعْ بِالشّـــــبَابِ

أما عنترة فلم يُرد في حياته سوى عبلة، فكان لا يحرص على حياته لعلمه أن في طريق نيلها عقاب كأداء، فيكاد يكون كارها لحياته، كارها لقومه، الذين يذلون له في المعركة، فإذا انكشف غمارها عادوا إلى ما كانوا عليه من استهزاء[٢]: (الطويل)

يُنادُونني في السِّلم يـــا بْـــنَ زَبيبـــة * وعندَ صدامِ الخيلِ يـــا ابـــنَ الأطايـــبِ
ولولا الهوى مـــا ذلَّ مثلـــي لمثلـــهم * ولا خَضعتْ أُســـدُ الفَـــلا للثَّعالـــبِ
ســـتذكرني قـــومي إذا الخيـــلُ أصـــبحتْ * تجولُ بها الفرســـانُ بـــينَ المضـــاربِ

كما أن أبا فراس سيذكره قومه أيضاً، فيقول[٣]: (الطويل)

سَيَذْكُرُنِي قَـــوْمي إذا جَـــدّ جِـــدّهُمْ * وفي الليلةِ الظلمـــاءِ يفتقـــدُ البـــدرُ

وأبو فراس قد سلّم بالموت واستسلم له، فقال بيتا بعد البيت السابق، ثم تلاه قوله:

---

(١) ديوان أبي فراس الحمداني، ٥٩.
(٢) شرح ديوان عنترة، ٣٥.
(٣) ديوان أبي فراس الحمداني، ١٦٥.

وَإنْ مُـــتّ فالإنْسَـــانُ لا بُـــدّ مَيّـــتٌ وَإنْ طَالَتِ الأيّـــامُ وَانْفَسَـــحَ العمـــرُ

لكن لا بد أن يكون موتا شريفا، يقول[1]: (الوافر)

وَمَـــوْتٌ في مَقَـــامِ العِـــزّ أشْـــهَى إلى الفرســـانِ مـــنْ عـــيشٍ بمَهْنَـــهْ

إنه الموت على صهوات الجياد، مقبلا غير مدبر، وحينها لا يكون مقبولا فحسب، بل مستساغا شهيا، هذا ما يرتضيه لنفسه، وخاطب به سيف الدولة – في أثناء أسره– قائلا[2]: (الطويل)

وَلَكِـــنّني أخْتَـــارُ مَـــوْتَ بَـــني أبي على صهواتِ الخيـــلِ غـــيرَ موســـدِ

وَتَـــأبَى وَآبَـــى أنْ أمُـــوتَ مُوَسَّـــداً ....

وهذا ما ارتضاه عنترة كذلك، جاعلا موته نصب عينيه دائما، ولعل هذا هو الذي وهب له الحياة، كما أسلفت: (الوافر)

فأَمـــا القـــائلونَ هزبـــرُ قـــومٍ فَذَاكَ الفَخـــرُ لا شَـــرَفُ الجـــدود[3]

وأمَّـــا القـــائِلونَ قَتيـــلُ طَعْـــنٍ فـــذلك مصـــرع البطـــل الجليـــد

نعم وذلك أن الموت غاية كل حيّ، فداعيه لأهل الأرض داع، لا يسع أحدا إلا تلبيته، وهل تخفى هذه الحقيقة عن أحد؟ فيقول[4]: (الطويل)

تعـــالوا إلى مـــا تعلمـــون فـــإنني أرى الـــدَّهْر لا يُنْجـــي مـــن المَـــوتِ ناجيـــا

---

(١) ديوان أبي فراس الحمداني، ٣٢٧.

(٢) ديوان أبي فراس الحمداني، ٩٦.

(٣) شرح ديوان عنترة، ٦٥.

(٤) شرح ديوان عنترة، ٢١٦.

لأنه لو كان ينجو منه أحد لنجوا، إذ أحرزتهم أسنّة عنترة، لكن فهيهات تحرز الأسنّة عنترة ذاته:

ألم تعلمـــوا أنَّ الأســـنة أحـــرزتْ بقيتنـــا لـــو أن للـــدهر باقيـــاً

وأخيرا لخص أبو فراس تلك الأفكار، وهذه الطقوس في كلمته الخالدة[1]: (الوافر)

بَكَـــرْنَ يَلُمـــنَني وَرَأيـــنَ جـــودي عَلى الأرْمَـــاحِ بِـــالنّفْسِ المَضَـــنّهْ

فَقُلـــتُ لَهُـــنّ هَـــلْ فِـــيكُنّ بـــاقٍ عَلى نُـــوَبِ الزّمـــانِ إذا طَرَقْنَـــهْ؟

و إنْ يكـــنْ الحـــذارُ مـــنَ المنايـــا سَـــبيلاً للحَيَـــاةِ فَلِـــمْ تَمُتْنَـــهْ؟

.....

فـــــلاَ يـــــأمرنني بمقـــــامِ ذلٍ فمـــا أنـــا بـــالمطيعِ إذا أمرنـــهْ

وَمَـــوْتٌ في مَقَـــامِ العِـــزّ أشْـــهَى إلى الفرسانِ مـــنْ عـــيشٍ بمهنـــهْ

فأتى على جميع ذلك في هدوء وسلاسة واطمئنان، دون أن يجزع أو يفزع، بل هو صابر متجلّد، ينتظر الردى ولا يخافه، فإذا أتى لا يدفعه دافع، لأنه أيّ يوميه من الحمام يفرّ؟ أيوم لم يقدر؟ فلا داعي يومئذ للفرار، أو يوم قدر؟ فلن يستطيع، "فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ"[2]، ولذا فهو الذي لا يرضى بمقام الذلّ، فالموت أطيب من ذلك بكثير، على حدّ قول عنترة[3]: (الكامل)

واختَـــرْ لِنَفْسِـــكَ منْـــزلاً تعْلـــو بـــه أَوْ مُتْ كريمـــاً تَحْـــتَ ظـــلِّ القَسْـــطَل

---

(١) ديوان أبي فراس الحمداني، ٣٢٧.

(٢) الأعراف، ٣٤.

(٣) شرح ديوان عنترة، ١٣٤.

فـــالموتُ لا يُنْجيـــكَ مـــنْ آفاتِـــهِ حصـــنٌ ولـــو شـــيدتهُ بالجنـــدل
مـــوتُ الفـــتى في عـــزهِ خـــيرٌ لـــه منْ أنْ يبيتَ أســـير طـــرفٍ أكحـــل

.....

لا تســـقيني مـــاءَ الحيـــاة بذلـــةٍ بل فاسقني بـــالعزِّ كـــاس الحنظـــل
مـــاءُ الحيـــاةِ بذلـــةٍ كجهـــنم وجهـــنم بـــالعزِّ أطيـــبُ مـــنزل

رابعاً: نهايةُ المطاف

وفي نهاية هذه التطوافة، نستطيع القول: إن شعر الفروسة عكس كثيرا من عادات وأخلاق ومعتقدات العرب، ولا سيما الفرسان منهم، ولذا فقد جاءت أفكار الشاعرين متقاربة متشابهة، ولم يتسم شعر الأخير منهما بشيء من التجديد، فلقد جرى في مضمار سابقيه.

ومما حفظه هذا الشعر من عادات العرب وأساطيرهم –غير ما سلف ذكره في الدراسة– حديثهم عن السعلاة، والغول، وهي أشباح وهمية، ادّعوا أنها من عوالم الجن أو غيره من مخلوقات خفية ذات قوة شريرة، فمن ذاك قول عنترة، وقد شبه الجياد بالسعالي، في خفتها ولطافتها وشدة عدوها [1]: (الكامل)

نأْتِي الصَّـــريخَ علـــى جيـــادٍ ضُـــمَّرٍ   خُمْـــصِ البطـــونِ كـــأنهنَّ ســـعالِي

وقوله[2]: (الوافر)

أتونـــا في الظـــلاَم علـــى جيـــادٍ   مضمّرة الخواصر كالسّعالي

ومنه أيضا قول أبي فراس[3]: (الطويل)

تأسّـــيْ! كَفَـــاكِ الله مـــا تَحْذَرِينَـــهُ   فقَد غالَ هـــذا النّـــاسَ قبلـــكِ غُـــولُ!

فهو وإن قاله على التشبيه، إلا أنه شبه الدهر بالغول في شدته وقوته وقسوته وتلونه، وفي كونه يتر الناس ولا يستطيع أحد مواجهته والانتصاف منه، وهذا ما اعتقده العرب في الجاهلية، فشبه امرؤ القيس مسنونته بأنياب

---

(١) شرح ديوان عنترة، ١٣٣.

(٢) شرح ديوان عنترة، ١٢٩.

(٣) ديوان أبي فراس الحمداني، ٢٥٤.

أغوال[١]، وجعل كعب مراوغة حبيبته كما تلون في أثوابها الغول[٢]، وللغول مع تأبط شرا حديثٌ عجبٌ ذو شجون[٣].

ويظهر الرمح والطعن به في معارك أبي فراس أكثر، غير عنترة الذي كان ينشط أول ما ينشط إلى السيف، فكان لديه أول السلاحين وأحدّهما، وأعظمهما، ولا يعني هذا تخلي عنترة عن طعن الرماح، أو أبي فراس عن ضرب السيوف. يقول أبو فراس[٤]: (الوافر)

وكيفَ رددتُ غــربَ الجــيشِ عنــهمْ وَقَــدْ أخَــذَتْ مَآخِــذَهَا الرّمَــاحُ

ويقول[٥]: (الوافر)

ولي عنــدَ العــداةِ بكــلِّ أرضٍ دُيُــونٌ في كَفَــالاتِ الرّمَــاحِ

ويعيد الشطر الثاني ذاته في قصيدة أخرى[٦]، وكأنه أغرم بتعبيره "كفالات الرماح"

ويقول عنترة[٧]: (الوافر)

وســيفي كــان في الهيجــاء طبيبــا يداوي رأس مــن يشــكو الصــداعا

---

(١) ينظر: ديوان امرئ القيس، ١٣٧، شرح: عبد الرحمن المصطاوي، دار المعرفة، بيروت، ط٢، ٢٠٠٤م.

(٢) ينظر: ديوان كعب بن زهير، ١٢٥، تحقيق: درويش الجويدي، المكتبة العصرية، بيروت، ط١، ٢٠٠٨م.

(٣) ينظر: الأغاني، ١٣٨/١٠.

(٤) ديوان أبي فراس الحمداني، ٧٥.

(٥) ديوان أبي فراس الحمداني، ٨٠.

(٦) ينظر: ديوان أبي فراس الحمداني، ٨٢.

(٧) شرح ديوان عنترة، ٩٠.

ويقول[1]: (الوافر)

وفي كَفــيّ صــقيلُ المــتن عَضْــبٌ يداوي الــرأس مــن ألــم الصــداع

ولعل هذا يعود إلى أن اعتماد العرب في قتال بعض بعضا كان على السيف أكثر من غيره، من أدوات الحرب، وبخاصة أن فرسان العرب كانوا يتبارزون بالسيوف، ويقدمون أنفسهم بأبيات من الشعر أو الرجز يفخرون بها ويسجلون مآثرهم، أما في حروبهم مع الروم فيبدو أن الرماح كانت الأكثر شهرة، ولم يكن ثمة مجال للتبارز، الذي إن وجد في بعض الأحايين فسيكون صامتا، ولا مساجلة فخرية بين يديه، وبالطبع كانت أكثر حروب أبي فراس مع الروم، أما عنترة فعلى الرغم من أن الأساطير أخرجته من جزيرة العرب ليحارب الروم والفرس، وغيرهم من أجناس الأمم، فالصحيح – لو التزمنا الحقائق التاريخية المجردة– الثابت عن تاريخه لا يعدو سطورا معدودة لا نستطيع الجزم من خلالها حقيقة الأمر، لكن ما نعرفه أنه كان فارس قبيلته في غزواتهم وغاراتهم ضد أعدائهم من قبائل العرب، ولا سيما في حرب داحس والغبراء.

ومما نعرفه عن أحوال الحياة اليومية للعرب وما يعتريهم ويمر بهم من خلال شعر الفروسة، ما نجده عند عنترة حين تحدث عن حصانه ووصفه، فقال[2]: (الكامل)

نَهْــدِ القَطــاةِ كأَنَّهــا مــنْ صَــخْرَة مَلْســاءَ يَغْشــاها المســيلُ بمَحفَــلِ

وكــأنَّ مخــرج روحــهِ في وجهــهِ سَــرَبَانِ كانــا مَــوْلَجينِ لجيــأَل

---

(١) شرح ديوان عنترة، ٩٧.

(٢) شرح ديوان عنترة، ١٢٣.

حيث شبه قطاته (مقعد الردف منه) في نعومتها ولمعانها وغلظها بالصخرة الملساء الغليظة التي يكثر عليها ماء السيل فيجليها وتظل ملساء ناعمة لامعة، وتلك صورة مأخوذة من حياة البادية، أيضا شبه في البيت الثاني، فتحتي أنفه (مخرج روحه) بالغار (السرَب) تحت الأرض، وأراد به جحر الضبع (الجيأل).

أيضاَ كانوا يفتخرون بحيازة الخيل الجيدة الكريمة [(١)]: (الوافر)

إذا افتخرَ الجبـــانُ ببـــذلِ مـــالِ   فَفَخْـــري بالمَضـــمَّرة العِتـــاقِ

ومن ذلك أيضا ما قاله أبو فراس، واصفا ناقته[(٢)]: (الطويل)

كَـــأنّ أعَـــالي رَأسِـــهَا وَسَـــنَامِهَا   منـــارةُ قســـيسٍ قبالـــةَ هيكـــلِ

وهي صورة حضرية استمدها أبو فراس من حياته المدنية، و لا ننسى أن الشام كانت – قبل الإسلام- أرض الروم والنصارى، لهم فيها الهياكل والمنارات والكنائس والبيع، والأديرة وبيوت الرهبان، اطّلع أبو فراس على كل ذلك من خلال عيشه ثَمّ.

أيضا عرفوا الطب والتداوي[(٣)]، وكذا كانوا في المعارك يسمون أنفسهم بأسمائهم، ويفتخرون بذلك، يقول أبو فراس[(٤)]: (الوافر)

يعيبُ علـــيَّ أنْ سميـــتُ نفســـي   وَقَدْ أخَـــذَ القَنَـــا مِـــنْهُمْ وَمِنّـــا

فَقُلْ لِلعِلْجِ لَـــوْ لمْ أُسْـــمِ نَفْسِـــي   لَسَـــمّاني السّـــنَانُ لَهُـــمْ وَكَنّـــى

---

(١) شرح ديوان عنترة، ١٠٩.

(٢) ديوان أبي فراس الحمداني، ٢٧٢.

(٣) ينظر: شرح ديوان عنترة، ٩٠.

(٤) ديوان أبي فراس الحمداني، ٣٢٥.

ويبدو أن الروم لم تكن لهم هذه العادة في حروبهم، فتعجّب العلج حين سمع أبا فراس يسمي نفسه وعاب عليه ذلك، فوضّح له أنه لا بد سيعلمه بتسمية نفسه، أو حين يكربه، ويضايقه، ويلاصقه في مجال المعركة، فحينها يسميه لهم سنانه فيعرفونه.

وأيضا ينادي بعضهم بعضا، ليتحيزوا، ويتعارفوا، أو ينادون على أعدائهم حتى يعرفوهم ويتنبهوا لهم فلا يأخذونهم على غرة، وقد يُعدّ هذا من باب النَّصَف والانتصاف عندهم، حتى مع الأعداء، وتلك من خصال العرب، يقول عنترة [1]: (الوافر)

وكم داع دعــا في الحــرب بــاسمي ونــاداني فَخُضــتُ حَشــا المنــادي

لقد عاديــتَ يــا ابــن العــم ليثــا شــجاعا لا يَمَــلّ مــن الطــراد

يَــردّ جوابــهُ قــولاً وفعــلاً ببــيضِ الهنــد والسُّــمرِ الصِّــعادِ

أيضا سجل الشعر الفروسي طقوس ندب الميت، وعاداتهم في ذلك، فقال عنترة ناهيا عن بكاء الجبان وندبه [2]: (الوافر)

فَقُــلْ للنَّاعيــاتِ إذا بكَتــهُ ألا فاقْصِــرْنَ نَــدْبَ النَّادِبــاتِ

ولا تنــدبنَ إلاَّ ليــثَ غــابٍ شُــجاعاً في الحُــروبِ الثَّــائِراتِ

---

(١) شرح ديوان عنترة، ٥٨.

(٢) شرح ديوان عنترة، ٣٩.

المصادر والمراجع

- الأصفهاني. أبو الفرج، الأغاني، تحقيق: سمير جابر، دار الفكر، بيروت.
- الأعلم الشنتمري. يوسف بن سليمان، أشعار الشعراء الستة الجاهليين، تحقيق: محمد عبد المنعم خفاجي، ط٣ عبد الحميد حنفي، القاهرة، ١٩٦٣م.
- بدوي. أحمد، أسس النقد الأدبي عند العرب، نهضة مصر، ط٣، ١٩٦٤م.
- ابن قيم الجوزية. محمد بن أبي بكر، الفروسية، تحقيق: مشهور سلمان، دار الأندلس، السعودية، ط١، ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م.
- الجمحي. محمد بن سلام، طبقات فحول الشعراء، تحقيق: محمود شاكر، دار المدني.
- الخطيب التبريزي. يحيى بن علي، شرح ديوان عنترة، تقديم: مجيد طراد، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.
- الدسوقي. عمر، أحاديث الفروسية والمثل العليا، مكتبة نهضة مصر.
- الدويهي. خليل، ديوان أبي فراس الحمداني، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٢، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.
- سعيد. علي أحمد، مقدمة للشعر العربي، دار العودة، بيروت، ط٣، ١٩٧٩م.
- الصميلي. حمود، مفهوم الصدق في النقد القديم، نادي جازان، ٢٠٠١م.
- القيسي. نوري حمود، شعر الحرب حتى القرن الأول الهجري، مكتبة النهضة العربية، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م.
- القاضي. النعمان عبد المتعال، شعر الفتوح الإسلامية في عصر صدر الإسلام، مكتبة الثقافة الدينية، ط١، ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م.

- اللهيبي. منى، الفروسية في الشعر بين أبي فراس الحمداني وأسامة بن منقذ دراسة موازنة، رسالة ماجستير، جامعة أم القرى، السعودية، ٢٠٠٨م.
- المجذوب. عبد الله الطيب، المرشد إلى فهم أشعار العرب، دار الفكر، ١٩٧٠م.
- مختار. أحمد، معجم اللغة العربية المعاصرة، عالم الكتب، ط١، ٢٠٠٨م.
- مرتاض. عبد الملك، السبع المعلقات مقاربة سيمائية أنتربولوجية لنصوصها، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ١٩٩٨م.
- يوسف. حسني عبد الجليل، عالم المرأة في الشعر الجاهلي، دار الثقافة، ١٩٨٩م.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٨٦٥
أولاً: الفروسَةُ والشعرُ "قراءة تمهيدية"	٨٦٨
ثانياً: مظاهرُ الفروسَة لدي الشاعرين	٨٧٦
ثالثاً: إثنولوجيّةُ العاداتِ والمعتقداتِ في شعر الفارسين	٨٩٦
رابعاً: نهايةُ المطاف	٩٢٦
المصادر والمراجع	٩٣١
فهرس الموضوعات	٩٣٣